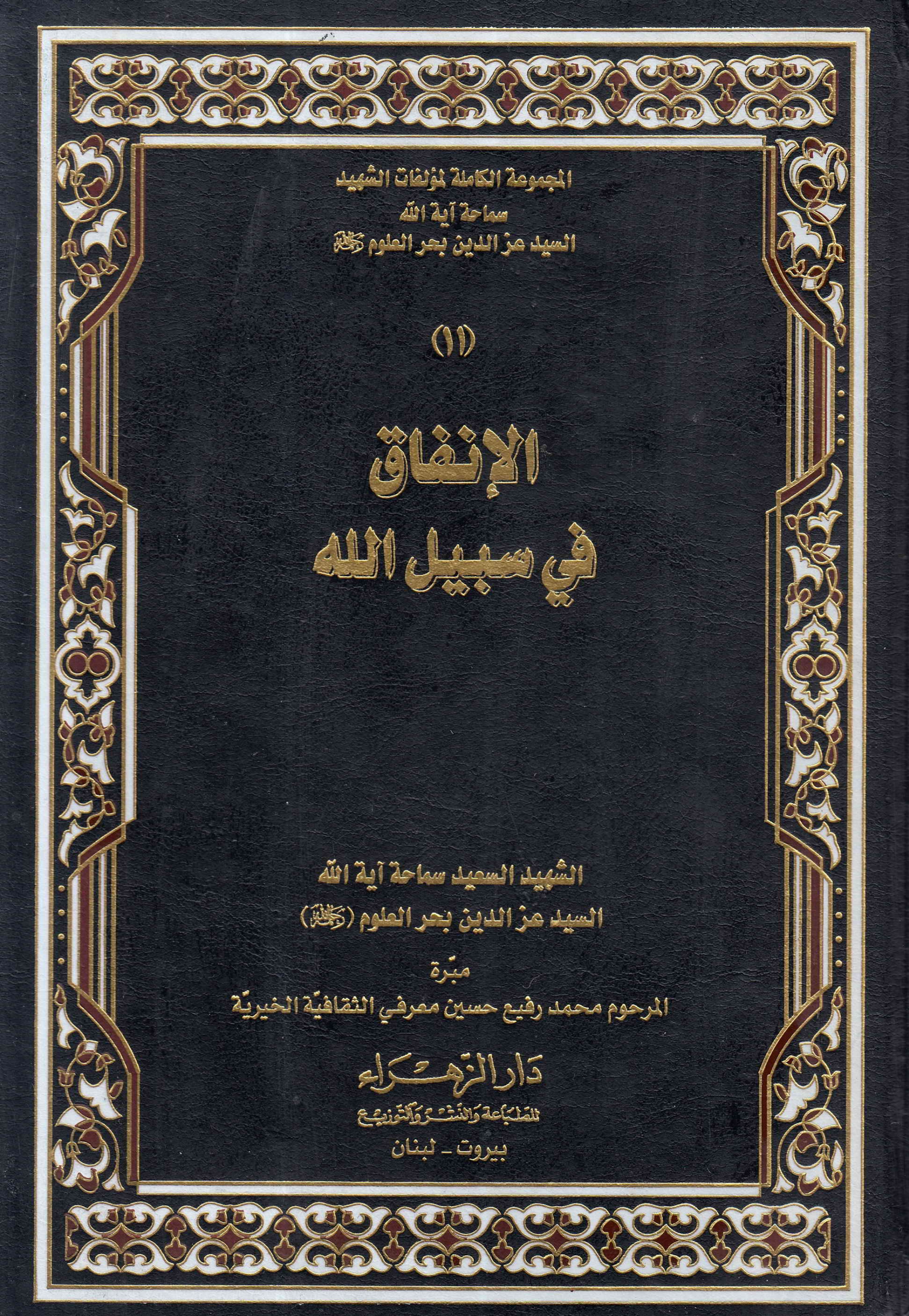

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم رحمه الله
(11)
الإنفاق
في سبيل الله
الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)
مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة
دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



الإنفاق

في سبيل الله

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)
(١١)

الإنفاق في سبيل الله

الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة

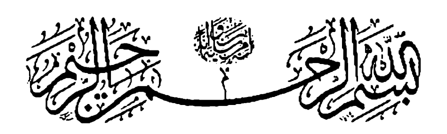
دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ



بيروت . لبنان . حارة حريك . شارع المقداد . بناية الهدى
هاتف : ٧٢٧٧٦٤ ٣ ٠٠٩٦١ ـ ٥٥٤٠٩٤ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: najaf_86@yahoo.com



والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من القرآن الكريم:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [2].

من السنة الشريفة:

(ولأن أعول أهل البيت من المسلمين أسدُّ جوعتهم، وأكسو عورتهم فأكف، وجوههم عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة وحجة وحجة...) [3].

(من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف) [4].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦١.

(٢) سورة التوبة: الآيتان، ٣٤ و ٣٥.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢، ١٩٥، ح١١، باب: قضاء حاجة المؤمن.

(٤) الإمام أبو عيسى الترمذي: سنن الترمذي/ ٣، ٩٠، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

تعال معي نتصفح الكتاب

مشكلة الفقر، والفقير لا تقل خطورة عن بقية المشاكل التي تهدد كيان المجتمع وتنخر فيه، ولذلك تصدى الإسلام لها، فأولاها اهتماماً خاصاً، فوضع لها حلولاً دقيقة ليجنب الأفراد ويلات الفقر، فإن البطون إذا جاعت، والحاجة إذا ألحت فقد يخرج الإنسان عن طوره، ويصبح كالوحش الكاسر لا تقف أمامه أي عقبة من العقبات.

لقد تناول المشرع الإسلامي هذه المسألة فرسم لها الخطوط العريضة واعتمد فيها على الأسس الرصينة ليخفف بذلك الضغط عن الطبقات الضعيفة بأن جعل لهم حقاً في أموال الأغنياء... ويتمثل هذا الحق بجعل الضرائب الإلزامية والنفقات التطوعية كما سنجد ذلك بنحو من التفصيل في بحوث هذا الكتاب مستمداً من القرآن الكريم، ومن السنة الشريفة.

وبتطبيق هذا القانون لم يبق فقير يعاني ما يخلفه الفقر من مصاعب وحرمان.

وموضوع بحثنا ليس هو الفقير المتسول الذي يتخذ التكفف حرفة ومكسباً، يكيف به حياته اليومية، يلاحق الناس بيد ممدودة من شارع إلى آخر، ومن زقاق إلى زقاق.

ليس هذا الإنسان موضوع بحثنا لأنه إنسان لا يستحق أن يبحث عن مشكلته، بل موضوع بحثنا هو الفقير العاجز عن العمل، أو القادر الذي لم تساعده الظروف على حصول عمل يؤمن له معاشه، أو من يعول به.

هذا الإنسان العاجز هو الذي يشكل خطراً على المجتمع لو ترك على هذا الحال، ولم تؤخذ مشكلته بعين الاعتبار... ذلك لأن مثل هذا الإنسان قد لا يطيق صبراً ليواجه هذا النوع من الحرمان، فيضطر بالأخير إلى ارتكاب الجرائم ليحصل من وراء ذلك على المال، ولقمة العيش، ولسنا بحاجة لذكر الكثير من المشاهد التي تمثل الفقر، والتي تكون السبب في إشاعة الفوضى، والجريمة من فتى عاطل، وقد غُلقت في وجهه الأبواب، أو كبير أقعدته الأيام، أو أم فقدت كفيلها بعد أن ترك لها رعيلاً من الصغار.

أو فتاة تحافظ على عفافها، ولكنها تواجه من لا يرحمها إلاّ بتقديم أعز ما لديها هدية رخيصة إليه.

وقد تستقبل أرصفة الشوارع صنوفاً ألفوا إليها يفترشونها إذا داهمهم الليل يلقون بين منعطفاتها أجساداً أنهكها التسول تاركين لعيونهم أن يداعبها الكرى وطائف يطوف عليهم يناغيهم بصوت ألفوا نغماته في مثل هذا الوقت من الليل وهو يقول:

نامي فإن لم تشبعي ... من يقظة فمن المنام

هذا الحشد من المساكين ماذا نقول لهم لو أقدموا على الجريمة فسرق بعضهم وباع كرامته آخر وتطاول ثالث فقتل نفساً محترمة.

عندها نجد أنفسنا تؤمن شاءت أم أبت بالحديث الذي يقول:

كاد الفقر أن يكون كفراً.

ولكن سرعان ما تتلاشى هذه الصور إذا ما استجاب الموسرون لنداء القرآن والسنة، فأدوا ما عليهم من الحقوق إلى الفقراء والمستحقين، وأقرضوا الله قرضاً حسناً، وأنفقوا في سبيل الله ـ وفي هذه الحالة ـ لا يبقى مجال للجريمة، بل يعود

الجميع إلى حضيرة الإسلام، وهم يطبقون تعاليمه، وبذلك يؤمّنون لمجتمعهم السعادة، والرفاه، وبعدها يقف الإسلام في وجه من تسول له نفسه أن يرتكب الجريمة لينزل به العقوبات الصارمة لأن الجريمة في هذه الصورة لا تكون وليدة الحاجة ليعذر في بعض الصور من يرتكبها لو خاف على نفسه من الوقوع في التهلكة، بل هي وليدة النفوس الشريرة الخبيثة، ولذلك لا ترحم القوانين السماوية، والوضعية مثل هؤلاء، بل تلاحقهم لتستأصل مادة الفساد باقتلاع جذور الجريمة.

وفي الختام، أضرع إلى الله القدير ،أن يصلح لنا نفوسنا، وشؤوننا ويرزقنا كرامة الدنيا والآخرة، وهو الموفق.

العراق ـ النجف الأشرف

صفر / ١٤٠٨هـ

عز الدين السيد علي بحر العلوم

ملكية الفرد للمال

من الأمور المهمة التي تبناها الإسلام كأساس للنظام الاجتماعي في هذه الحياة هي نقطة الاعتدال، والأخذ بالحد الوسط في كل شيء يخص الفرد من أعمال وشؤون، وقد ساق القرآن الكريم مثالاً لهذه الصورة فقال سبحانه:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [1].

فلا إسراف ولا تقتير بل أمر وسط بين أمرين، والآية الكريمة، وإن كان موردها الصرف والإنفاق، ولكن آيات القرآن دستور لا يخصص المورد فيها الوارد، بل الوارد فيها فقرة من فقرات الدستور الإسلامي تؤخذ تلك الفقرة كحكم أو كقاعدة تعم جميع الموارد، وفي جميع العصور إلاّ أن يدل دليل على آيات أخرى، أو من السنة الكريمة على الاختصاص وعدم الشمول.

وإذن، فالآية الكريمة تشير إلى أن توازن نقطة أساس لابد من المحافظة عليها وأن الإخلال بها يضر المجتمع، ويجر عليه الويلات.

ومن هذا المنطلق، تنظر الشريعة المقدسة إلى حرية الفرد في التملك، والصرف، والأخذ، والعطاء.

فهي لا تترك الفرد يتمتع بحرية مطلقة في نطاق التملك، والحصول على الثروة كيف يشاء، ومن أي طريق كان ليكون هو المالك الوحيد، ولا حق فيه لغيره يملك ما يشاء، ينفق حسبما يريد من دون قيد أو شرط.

ولكنها في الوقت نفسه لا تحرمه من حقه الطبيعي فتسلب منه الملكية الفردية، وتجعل ما يحصل عليه ملكاً لغيره، وخاضعاً للسلطة بحيث يكون الفرد عاملاً لا

---

(١) سورة الاسراء: الآية، ٢٩.

يملك لنفسه إلاّ ما يقيم له حياته المعاشية في أبسط أنواعها.

لا هذا، ولا ذاك بل حد وسط بين الأمرين.

الإسلام يحترم الفرد ويأخذ بعين الاعتبار ما يحقق له كرامته، ولكن في نطاق المجموعة وحدود المجتمع الذي يعيش فيه لأنه كما يلحظ المصلحة الخاصة كذلك يضع في حسابه المصالح العامة، بل قد تقدم المصالح العامة في بعض الموارد على المصلحة الخاصة لو اقتضت الضرورة لمثل هذا الإجراء ومن ذلك:

١ـ **لو أسّر الكفار بعض المسلمين:** وجعلوهم في الصف الأول، وفي الخط الإمامي من المعركة ليكونوا عقبة في طريق زحف المسلمين، فإن الشارع المقدس يأمر المسلمين بالتقدم، ولو اقتضى ذلك قتل هؤلاء المسلمين الأسارى، وحينئذٍ فلهؤلاء الجنة، ولورثتهم الدية تستحصل من بيت المال.

٢ـ **الاحتكار**: وهو حبس السلعة والامتناع عن بيعها لانتظار زيادة القيمة مع حاجة المسلمين إليها وعدم وجود الباذل لها.

وهذا العمل حرام من حيث المبدأ، ويجبر المحتكر على البيع من دون أن يعين له السعر.

نعم، إذا كان السعر الذي اختاره مجحفاً بالعامة أجبر على الأقل [١].

ولسنا في صدد تعيين ما يختص به هذا الحكم من الأجناس، والحاجيات، فهل هو كل ما يحتاج إليه المسلمون من السلع أم أنها مختصة بالحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والزيت لا غير، ويستحب في الباقي؟ فلذلك مورده الخاص من كتب الفقه.

بل المهم هو، بيان أن الاحتكار، ولو في بعض الحاجيات من موارد تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

---

(١) السيد أبو القاسم الخوئي: منهاج الصالحين/: ٢، ١٤ ـ ١٥، الطبعة الثامنة.

٣ ـ حق المارة: ويتمثل ذلك في الأثمار المتدلية في بعض البساتين على الطريق فإن لمن يكون مروره عليها لا بنحو القصد إليها أن يتناول من ذلك الثمر بشروط تتعرض لها مصادر الفقه.

وهناك كثير من هذه الموارد لاحظ الشارع المقدس فيها المصلحة العامة فقدّمها على المصلحة الخاصة.

ومن هذا القبيل ما نحن فيه، وبالنسبة إلى ما يحصل عليه الفرد من الثروة والتصرف فيه فإن الإسلام يبيح له ذلك ليعمل طاقاته في سبيل الإنتاج، ولكن لا ينافي هذا أن يضع له مقاييس خاصة لابد من رعايتها حفاظاً منه على التوازن وعقبة في طريق التضخم الذي ينشأ من جراء هذه الحرية بدون قيد أو شرط، ولئلا ينعم بعضهم على حساب الآخرين أو يتخم بعضهم، ويجوع آخرون.

وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير) [1].

ومن هذا العرض نخلص إلى أن الفرد في حياته المعاشية حر ومقيد.

حر: في التملك والتصرف في قبال الأنظمة التي تسلبه الحرية، وتجعله أداة لغيره.

ومقيّدة: بالنسبة إلى بعض أسباب التملك، أو بالقيود التي توضع عليه بعد التملك رعاية للمصالح التي تقتضيها طبيعة المعايشة في المجتمع الإسلامي.

وقد نواجه ونحن نقول بهذه الإزدواجية من التملك والتصرف المقيدين بإشكال يقول فيه بعضهم:

إن جعل المقاييس من قبل الشارع المقدس ضابطاً لحفظ التوازن ينافي ما تقرره

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ١٠، ح٢، باب: وجوب الزكاة.

القاعدة المشهورة، التي يتفق عليها كلهم من أن الناس مسلطون على أموالهم، إذ من الواضح أن تقييد الحرية المذكورة في التملك والصرف معناه الحد من هذه السلطة التي أقرها الشارع، والتي بها يتمكن الفرد من التصرف بما يحصل عليه كيف يشاء!

والجواب عن ذلك:

إن الإنسان قد يتصور أنه عندما يحصل على شيء، أو يستولي عليه بأحد الطرق المشروعة أنه هو المالك الحقيقي لذلك الشيء، وليس لأحد أن يتدخل فيما يعود لحرية التصرف فيه. وهذا لحدٍ ما صحيح، وأن القاعدة المشهورة من أن الناس مسلطون على أموالهم أيضاً معترف بها، ولكن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن هذه السلطة، وهذه الملكية هما بالنسبة إلى ما يعود إلى الناس فيما بينهم، وأما بالنسبة إلى الفرد مع خالقه فالقضية تأخذ طابعاً آخر وشكلاً جديداً.

ذلك لأن الملكية الحقيقية إنما هي لله وحده من غير شريك، وأن السلطة الكبرى له من غير منازع، وإنما للإنسان من الملكية ما هو محدود له من قبل الله سبحانه.

وعندما يرزق الله أحداً مقداراً من المال فقد يتخيل الإنسان أن ما حصل له كله ملك له.

إلاّ ان ذلك خيال محض وتصور فارغ بل هو يملك المقدار المخصص له لا غير.

وعلى سبيل المثال، لو حصل الإنسان على مقدار عشرة دنانير، وقلنا إن للفقراء اثنين من هذه العشرة حقاً شرعياً فمعنى ذلك أنه من أول الأمر كان قد ملك ثمانية لا أكثر أما ملكه لتمام العشرة فهو ملك صوري، وإنما الحقيقي هو الثمانية لا غير.

وليس في هذا أي جور على الفرد فإن من أعطاه المال قيّده بهذا النحو من أعطاه مقداراً خاصاً والزائد ليس له، وغير مسلط عليه.

إن المال كله هبة من الله، وهو مال الله حتى بعد حصول العبد عليه، وفي هذا

الصدد تقول الآية الكريمة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (١).

فهو مال الله، ولذا أمر بأعطائه منه، ولو لم يكن ماله لما أمر بإعطائه إذ لا معنى لأن يأمر الله بإعطاء ما ليس له، بل الحقيقة باقية حتى بعد وصوله إلى الأفراد.

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (٢).

وإذا كانت معاملة الله لعبده على المال معاملة الاستخلاف فهو إذن، أمين على ذلك فلماذا يتضايق الإنسان من الضوابط التي يجعلها المالك الحقيقي على ما استخلف عليه؟

ولماذا نقتصر في الملكية على هذا التقييد؟

بل المال، ومن وصل إليه، والأرض والسماوات وما فيها كل ذلك مملوك لله.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ (٣).

فكل شيء في هذا الوجود بسمائه، وأرضه، وما فيها، وما بينهما مملوك له ملكية مطلقة وغير محددة بحدود، ولا مقيدة بقيود.

وبعد هذا العرض فلا منافاة بين القول بتسلط الفرد على ماله، وبين القيود والضوابط التي يجعلها الله على الأموال تملكاً وتصرفاً.

﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

---

(١) سورة النور: الآية، ٣٣.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٧.

(٣) سورة المائدة: الآية، ١٢٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ٢٦.

التكافل الاجتماعي:

التكافل الاجتماعي، عنوان يراد منه التحام الأفراد فيما بينهم في أطار من الود والرحمة يشد بعضهم بعضاً، كما يقول الحديث الشريف (المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً).

وللتكافل مظاهر متعددة.

فالجهاد في سبيل الله، ينضم الأفراد بعضهم إلى بعض ليقفوا بوجه العدو.

والمهندس، والطبيب، وكل ذي فن وحرفة يقوم بعمله من التكافل.

وتقديم الخدمات الخاصة، والعامة من التكافل.

ورعاية اليتيم أيضاً من التكافل.

وأفراد الأسرة كل يقوم بواجبه الأسروي من التكافل.

وإسداء النصح، والكلمة الطيبة يقدمها الإنسان إلى غيره من التكافل.

ومد يد العون إلى الفقراء، والضعفاء من التكافل.

وبتعبير شامل القيام بما يعود إلى المجتمع على نطاق الأفراد، والمجموعة ككل من التكافل.

إن الحياة الاجتماعية ليست بالإمكان أن تنتظم بجهود الفرد كفرد بل بجهود الفرد منظماً إلى المجموعة ليصل الجميع إلى هدفهم المنشود.

والتكافل يريده الإسلام، ويحث عليه لأنه صورة شفافة يعبر عن الرحمة والحنو والعطف والشفقة، وقد أراد الله ذلك لعباده لأنه سبحانه المنبع الحقيقي للرحمة، والشفقة، والسماحة.

فهو رحيم، ويحب الرحمة، ويوصي بالرحمة.

والإنسان هو الصورة المثالية لصنع الله في هذه الأرض الواسعة، وقد ميّزه عن بقية مخلوقاته بالعقل والإدراك، ومنحه من الطاقات الجبارة ما به تظهر عظمته في هذا الكون، لذلك أراد الله أن يحذو حذوه لتعبر الصورة عن قدرة المصور ومكانته، وقد اختاره ليكون الشاشة الواضحة ليعرض عبرها كل الصفات الخيرة تلك

الصفات التي أراد أن يتصف بها العبد.

ومن هنا نقول، إن هذه الحياة بما هي مكان يعيش في رحابها هـذا الحشد من البشر لابد لها من نظام تكافلي ينظم للأفراد حياتهم، ومتطلباتهم، يظللهم شعورهم بالمسؤولية (فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) [١]، كما يقول (ﷺ).

وعلى ضوء هذا النظام تزدهر الحياة، وعلى تطبيقه يشق المجتمع طريقه نحو الرقي والرفعة.

وكما قلنا، إن التكافل الاجتماعي لـه مظاهر متنوعة، ولم يقتصر على مظهر واحد، بل هو مجموعة صور عديدة قيمة.

ومن بين هذه الصورة تتألق صورة الإنفاق في سبيل الله، ومد يد العون إلى الضعفاء والمعوزين ليجد هؤلاء من يحنو عليهم، ومن ينتشلهم من براثن الفقر، ويبعد عنهم صوره المرعبة، وبذلك تتوازن القوى، ويتجه كلهم نحو بناء مجتمع مثالي في كل عصر، ومع كل جيل.

وحديثنا في هذا البحث عن التكافل في الإنفاق لأن المال وتوزيعه على شكل يؤمن للغني غناه، وللفقير حقه هو من القواعد الأساس لعملية التكافل لذلك رتب الإسلام نظاماً للإنفاق لئلا يسرف الإنسان في ذلك، أو يقتر.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [٢].

وقبل أن نبدأ في البحث عن كيفية هذا النظام، والحديث عنه نقف لنجيب عما نطالب به من إيضاح حول ما يوجه من الاعتراض عن مشكلة الفقر وابتلاء البعض من الناس بالفقر والعوز مع أن الله سبحانه هو خالق الخلائق ورازقهم هو الذي قدر بينهم معايشهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [٣].

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٧٢، ٣٨، ح٣٦، باب: الإنصاف والعدل.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٢٩.

(٣) سورة هود: الآية، ٦.

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾[(١)].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾[(٢)].

وإذا كان الرزق من الله، وهو الذي يقدر معايش العباد فلماذا لم يمنح الفقير ما يغنيه ليجعل العباد كلهم على حد سواء، أو لا أقل من أن يكفي الفقير إن لم نقل بالتساوي؟ وحينئذٍ، فيمنحه ما يرفع عنه الاتكال على ما تجود به قريحة الغني وتعود حياته رتيبة تسير على نحو من الكفاف، وبذلك يستغني عن قانون فرض الضرائب المالية على الأغنياء إلزامياً، أو تبرعياً، ولا داعي لهذه الصورة من التكافل بل تبقى للتكافل صوره الأخرى مما يحتاجه لهذه الحياة.

والجواب عن ذلك: إن الله ليس بعاجز عن أن يجعل عباده في مستوىً واحد من حيث الغنى والرفاه المالي فقد نوه القرآن الكريم في آيات كثيرة من أن الله هو الرزاق:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[(٤)].

ولكنها المصالح التي تعود إلى البشر، والتي تقضيها طبيعة الحياة العملية في واقعها الخارجي هي التي تدعو لأن يكون هذا التمايز.

ذلك لأن الحاجة أساس العمل، والعمل يخلق الإنتاج، وإذا كان الكل في صف واحد فمن يعمل، وكيف يحصل الإنتاج؟

وعلى سبيل المثال، فلو فرضنا أن بلداً كل أفراده أغنياء، ويتمتعون بثروات مالية فمَنْ منهم يحضر لينزل إلى الحقل ليحرث ويزرع، ومَنْ منهم يبني، ومَنْ منهم يحرك الآلة، ومَنْ منهم يقوم بما تتطلبه هذه الحياة من أعمال؟

---

(١) سورة الزخرف: الآية، ٣٢.

(٢) سورة الاعراف: الآية، ١٠.

(٣) سورة سبأ: الآية، ٢٤.

(٤) سورة فاطر: الآية، ٣.

إن الحاجة هي التي تدعو العامل أن ينشد إلى رب العمل، ورب العمل إلى العامل، وهكذا، ومن جراء ذلك تؤمن متطلبات الحياة، وما يحتاج إليه الفرد من طعام وكساء وسكن.

على أن هناك نقطة دقيقة كشف عنها القرآن الكريم، وأوضح أن الله سبحانه ينزل الأرزاق حسب موازين مضبوطة، وأنه أعلم بعباده، وكيف أن بعضاً منهم لو أغناه ووسع عليه لكفر.

يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[1].

وختام الآية ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ يعطينا أن التقدير الذي يقدّره الله لعباده نابع عن خبرة، وبصيرة بشؤون العباد إنه يعلم لو وسع على العباد في الرزق على حسب ما يطلبونه، ويرغبون فيه لبغوا في الأرض، والبغي في اللغة: هو (الظلم والجرم والجناية، والباغي هو الظالم، والعاصي على الله)[2].

ولكن (ينزل بقدر ما يشاء)، وعلى قدر صلاحهم، وما تقتضيه مصالحهم، وقد جاء عن النبي (ﷺ) عن جبرائيل عن الله سبحانه: (إن من عبادي من لا يصلحهُ إلاّ السقم، ولو صححته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحهُ إلاّ الصحة، ولو سقمته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر، ولو أغنيته لأفسده، وذلك اني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم)[3].

وبعد كل هذا، فإن الأحاديث الواردة عن النبي (ﷺ)، وأهل البيت (عليهم السلام) تتناول هذه المشكلة، وتدفع الإشكال على نحو الجزاء والأجر للفقير على ما قسمه

---

(١) سورة الشورى: الآية، ٢٧.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (بغي).

(٣) مجمع البيان والدر المنثور للسيوطي في تفسيرهما للآية ٢٣ من سورة الشورى.

الله له من فقره.

فعن النبي (ﷺ) أنه قال: (يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله إليه كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليَّ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة. أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك فيّ يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم الغرق فيتخلل الصفوف، وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة)[١].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أنه قال لبعض أصحابه، أما تدخل للسوق؟ أما ترى الفاكهة تباع، والشيء مما تشتهيه، فقال: بلى، قال (عليه السلام): أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شرائه حسنة) [٢].

بهذا النوع من الأجر والتقدير يقابل الفقير ليجبر الله له ما يعانيه في هذه الدنيا من تبعات الفقر.

وهنيئاً له والله.

يعتذر إليه أو هو شبيه بالمعتذر كما في بعض النسخ، ويتوالى التكريم من الله سبحانه لعبده الفقير فتعطينا الأحاديث مرة أخرى صوراً متلألئة تضفي إشعاعاً خاصاً على الفقير يميّزه عن بقية الناس.

فقد جاء في بعض الأحاديث أن الله سبحانه أوصى لنبيه إسماعيل (عليه السلام) قائلاً: (اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. فقال إسماعيل: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون)[٣].

والفقراء بعد كل هذا صفوة الله من خلقه.

---

(١) المولى النراقي: جامع السعادات/ ٢، ٦٤، مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف..

(٢) المصدر المتقدم: ٢، ٦٦.

(٣) المصدر السابق: ٢، ٦٧.

فعن النبي محمد (ﷺ): (يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة، من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يترددون) [١].

وفي مورد آخر يقارن الله بين الفقراء والأغنياء فيجعل الكفة تميل لصالح الفقراء، جاء ذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام). (إن الله يقول يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه، وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن ان وسعت عليه، وذلك أبعد له مني) [٢].

ومرة أخرى نعود لصلب الموضوع في البحث لنتكلم عن الإنفاق بقسميه الإلزامي والتبرعي.

---

(١) المصدر السابق:٢، ٦٧.

(٢) المصدر السابق: ٢، ٨٠.

١ـ الإنفاق الالزامي

ويشتمل على أمرين:

أـ الضرائب المترتبة على الأموال.

ب ـ الضرائب المترتبة على الأعمال.

أـ الضرائب المترتبة على الأموال.. وهي على قسمين:

١: الزكاة.

٢: الخمس.

أولا: الزكاة

الزكاة في اللغة هي: النماء، والطهارة، وزكا الشيء نما وتكاثر، وزكت النفس طهرت، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [١].

تطهرهم من البخل والشحة وحب المال. وتزكيهم بنماء أموالهم وحسناتهم، وتهذيب نفوسهم، وبذلك يرتفعون إلى منازل المخلصين الطيبين [٢].

أما الزكاة في المصطلح الشرعي فهي: (اسم لحق يجب في المال يعتبر في وجوبه النصاب) [٣].

وعندما نعبر عن الزكاة بأنها ضريبة على المال الذي يحصل عليه الإنسان أو لحق يجب في المال فلا ينافي هذا التعبير إنها في الوقت نفسه عبادة مالية يتوخى الشارع من فرضها تنظيم الاقتصاد وترتيب الحياة بشكل متوازن بلا تخمة ولا حرمان بل حد

---

(١) سورة التوبة: الآية، ١٠٣.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (زكى).

(٣) الشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام/ ١٥، ٣.

وسط بين هذين الشبحين المرعبين.

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولاستغنى بما فرض الله له، وأن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الاغنياء...) [١].

وإذا ما أردنا أن نعرف ما للزكاة من أهمية في نظر المشرع رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة لنرى الآيات، والأحاديث قد أمرت باخراجها مقترنة بالأمر بإقامة الصلاة في أكثر من عشرين آية، وفي أحاديث عديدة حيث دأبت الآيات تكرر قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٢].

وفي الحديث الذي بيّن فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) (فدعائم الإسلام وهي خمس دعائم ... أولها الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الولاية... الخ الحديث) [٣].

فجاء ترتيبها بعد الصلاة مقدمة على الصيام.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) إنه قال: (عشر من لقي الله بهن دخل الجنة: شهادة ان لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان... الخ الحديث) [٤].

ولسنا في صدد ما للصلاة من أهمية في نظر المشرع، وأنها من أهم أركان الإسلام، ولكن على نحو العرض السريع نقول:

لقد نوهت الأحاديث بعظمة الصلاة في كثير من الموارد، وبينت أنها عمود

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦/ ٤، ح٦، باب: وجوب الزكاة.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٤٣.

(٣) وسائل الشيعة: ١/ ١٨.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١/ ١٩، ح٣٩، باب: وجوب العبادات الخمس.

الدين، وأنها إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردت ردّ ما سواها، وأنها لا تترك بحال، وحتى في حال الغرق لابد من الإتيان بها ولو بالإيماء بالعينين.

هذا الواجب العبادي، وبهذا النحو من الأهمية نرى الشارع المقدس قد قرن معه الزكاة.

وبأكثر من هذا فقد دأبت الأحاديث الكريمة تصرح بأن بين أداء الزكاة وإقامة الصلاة نحو ارتباط:

فقد جاء عن النبي (ﷺ) قوله: (أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم)[1].

وهل يستعظم الإنسان هذا النوع من الارتباط فكيف أن من صلّى ولم يزك أمواله لم تقبل صلاته مع أنه تقبل بحسب الموازين الشرعية، ويأتي الإيضاح عن الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث له يقول فيه: (إن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة فقال (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فمن أقام الصلاة، ولم يؤت الزكاة فكأنه لم يقم الصلاة) [2].

وإذن، فالارتباط بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ارتباط تنزيلي، ويفهم من قوله (فكأنه لم يقم الصلاة) بمعنى، أن تارك الزكاة صلاته ليست تلك الصلاة التي ينظر إليها الله بنحو من الأهمية، والاعتبار.

وعلى الصعيد الاجتماعي، لو تأملنا هذه المقارنة لرأينا من خلال كل هذه الآيات والأحاديث أن الشارع المقدس يتوخى من الأمر بهذين الواجبين على نحو الارتباط ولو تنزيلاً أن يجعل المكلف إنساناً مهذباً كاملاً.

فبصلاته، ينشد إلى خالقه يسبحه ويحمده ويعترف بالعبودية له، وبذلك تصفو

(١) المصدر المتقدم: ٦/ ٣، ح١، باب: وجوب الزكاة.

(٢) المصدر السابق: ٦/ ١١، ح٢، باب: تحريم منع الزكاة.

نفسه شفافة تنطبع فيها كل سمات الخير والرحمة.

وبزكاته، ينشد الفرد إلى المجتمع ليتحسس بأحاسيس أفراده من الضعفاء والمعوزين فيمد لهم يد المساعدة ويبعد عنهم شبح الفقر وآلام الجوع.

وبهذا الصدد يقول الإمام الرضا (عليه السلام): (إن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء، لأن الله عز وجل كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة [1] والبلوى كما قال الله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [2].

في أموالكم: اخراج الزكاة، وفي أنفسكم: توطين الأنفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء الشكر لنعم الله عز وجل، والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة، وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين...) [3].

وقد نقلنا من الحديث هذا القدر لنعرض من خلاله ما يتوخاه الإمام (عليه السلام) من شدة الأغنياء والتحامهم بالفقراء، وبيان: أن الله سبحانه في الوقت الذي يريد من عبده أن يتقرب إليه وتسمو نفسه فتسبح في الرحاب الأعلى بصلاته، كذلك يريد منه أن لا يبعد فينقطع عن المجتمع بل لينزل إلى معترك الحياة ليعمل ويقدم من نتاج عمله إلى من أنهكهم الفقر، وبذلك يكون قد جنب الفقير ويلات الحرمان وما يجره العوز عليه من إرهاصات قد تخرجه من وضعه الطبيعي فيجرم في حق الآخرين.

ونبقى نحن وجزاء من أقام الصلاة وآتى الزكاة لنهرع إلى القرآن الكريم لنراه يقرر ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

---

(١) الزمانة: العاهة: وأهل الزمانة أصحاب العاهات.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٨٦.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦/ ٥، ح٧، باب: وجوب الزكاة.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، وإذا كان التعبير بالعظيم له أهمية لو جاء على لسان البشر فكيف به وقد جاء على لسان الله عز وجل وهو الرحيم بعباده.

من تجب عليه الزكاة[٢] :

تجب الزكاة على الأشخاص التالية صفاتهم:

١ـ البالغ.

٢ـ العاقل.

٣ـ الحر.

٤ـ المالك للمال.

٥ : المتمكن من التصرف.

من غير فرق بين الذكر والأنثى..

ما تجب فيه الزكاة:

تجب الزكاة في:

١ـ الأنعام الثلاثة: وهي الإبل والبقر والغنم.

٢ـ الذهب والفضة المسكوكين.

٣ـ في الغلات الأربع: هي الحنطة والشعير والتمر والزبيب.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٦٢.

(٢) لما كانت فكرة البحث من هذا الكتاب هي بيان موارد الإنفاق، وأنها من أبرز صور التكافل الاجتماعي وإعطاء صورة مشوقة فيما يخص هذه الجهة لذا لا يسعنا الخوض على نحو من التفصيل فيما يتعلق ببحث الضرائب المالية من الزكاة والخمس وبقية الموارد من الكفارات، وغيرها، بل نحيل القارئ الكريم على مصادر الفقه خوفاً من الإطالة والخروج عن خط البحث لذلك نقتصر على هذا القدر مما يتعلق بهذه العناوين من الناحية الفقهية.

وتستحب فيما عدا ذلك مما تنبت الأرض مما يكال أو يوزن عدا الخضر.

أما أموال التجارات فقد اختلفوا فيها على قولين:

أحدهما: الوجوب.

ثانيهما: الاستحباب[١].

من تصرف إليه الزكاة:

وقد ذكرتهم الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

ثانيا: الخمس[٣]

الخمس حق مالي فرضه الله عز وجل على عباده في موارد مخصوصة فكلفهم بإخراج سهم واحد من كل خمسة أسهم مما يحصلون عليه من تلك الموارد أي ما يساوي ٢٠٪ من الأصل.

الموارد التي يجب فيها الخمس:

يجب الخمس في الموارد التالية:

١ـ غنائم دار الحرب.

٢ـ المعادن.

---

(١) راجع لذلك الشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام/ كتاب الزكاة، بحث ما تجب فيه الزكاة.

(٢) سورة التوبة: الآية، ٦٠.

(٣) لقد تعرضنا لبحث الخمس بشكل مفصل في كتابنا (اليتيم في القرآن والسنة) والبحث هنا مأخوذ منه على نحو الاختصار.

٣ـ الغوص.

٤ـ الكنز.

٥ـ أرباح التجارات.

٦ـ المال الحرام المختلط بالحلال.

٧ـ أرض الذمي المنتقلة إليه من المسلم.

من يستحق الخمس:

يقسم الخمس بنص الآية الكريمة، والأحاديث الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) إلى ستة أقسام، يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾[1].

وقد أوضحت الآية الكريمة أن هذه الأقسام الستة تنقسم إلى قسمين:

الأول: ويتمثل بما أفادته الآية من قوله تعالى:

﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾.

الثاني: وهو ما بقي من الأقسام: ﴿**وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ**﴾.

ويقول فقهاء الإمامية، بأن الأقسام الثلاثة الأولى هي بيد النبي (صلى الله عليه وآله)، أو الإمام (عليه السلام) من بعده حسبما استفيد من الأخبار الواردة في هذا الباب.

وأما الأقسام الثلاثة الثانية فهي، لليتامى والمساكين وابن السبيل من بني هاشم اعتماداً على ما ورد في هذا التخصيص من الأخبار التي أفادت بأن الله حرّم على بني هاشم الصدقة فأبدلهم بالخمس، وقد تعرضت مصادر الحديث للإمامية فذكرت بهذا الخصوص أخباراً كثيرة جاء فيها ما ألمحنا إليه من السبب في تخصيص بني

(١) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

هاشم، ومن هم بنو هاشم، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع على نحو من التفصيل راجع (الحر العاملي ـ وسائل الشيعة) وغيره من كتب الحديث أبواب الخمس.

فكرة الخمس من التكافل:

هذا الحق المالي عندما يخصص النصف منه إلى الإمام (عليه السلام)، والنصف الثاني إلى اليتامى والمساكين وأبناء السبيل من بني هاشم إنما هو صورة من صور التكافل الاجتماعي، والذي يريده الإسلام، ويحرص على تطبيقه حيث يجعل من الغني والفقير مجموعة واحدة يتحسس البعض منها بما يحيط بالآخر من العوز والحاجة.

فالفقير يشعر بهذا العطف من الغني، ولابد له يوماً ما من أن يقدّر له هذه العواطف ليقف إلى جانبه فيما يبتلى به من القضايا التي يحتاج فيها إلى ما يساعده فيها.

وبذلك يكون المجتمع يداً واحدة بغض النظر عن الأفراد، والقوميات، وما يتميز به الأفراد من فوارق عرقية، ومذهبية.

الضرائب المترتبة على الأعمال:

وهذه الضرائب يجمعها عنوان (الكفارات)، وهي عقوبات دنيوية يقصد من ورائها تخفيف ما على الإنسان من العقوبات الأخروية نتيجة مخالفة يقوم المكلف بها بترك عمل مطلوب منه، أو بالإقدام على عمل ممنوع عنه، وهي على أنواع:

١ـ **كفارة القتل**: فإذا قتل الإنسان مؤمناً عمداً ظلماً ففي هذه الصورة فرض الشارع المقدس عليه كفارة وهي: (عتق رقبة، وصيام شهرين متتابعين، وإطعام ستين مسكيناً).

وأما لو كان القتل خطأً، فكفارته (عتق رقبة، فإن عجز صام شهرين متتابعين، فإن عجز أطعم ستين مسكيناً).

٢ـ **كفارة الافطار** في شهر رمضان: فمن أفطر يوماً من شهر رمضان فكفارته (عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً).

٣ ـ **من أفطر يوماً** من قضاء شهر رمضان بعد زوال الشمس فكفارته (إطعام

عشرة مساكين فإن عجز صام ثلاثة أيام).

٤ ـ **فدية الإفطار عن مرض:** وهذه الفدية تتحقق على من أفطر في شهر رمضان عاجزاً عن الصوم لمرض نزل به، واستمر به المرض إلى رمضان قابل حيث يعجز عن القضاء أيضاً فيفدي عن كل يوم بإطعام مسكين واحد.

٥ ـ **كفارة الظهار**: وعملية الظهار، هو أن الرجل يترك وطء زوجته معتبراً إياها كأمه فيقول لها (أنت عليّ كظهر أمي) وهي عبارة يراد منها أن المرأة حرام عليه كحرمة أمه عليه، فلو أراد الرجوع إليها كفر عن هذه العملية (بعتق رقبة فإن عجز صام شهرين متتابعين، فإن عجز أطعم ستين مسكيناً).

٦ ـ **كفارة الإيلاء:** والإيلاء هو الحلف على ترك وطء الزوجة، وحينئذٍ فيكفر من يريد الرجوع (بعتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم فإن عجز صام ثلاثة أيام متواليات).

٧ـ **كفارة اليمين:** وذلك حيث يحلف الإنسان أن يفعل شيئاً، أو يتركه، ثم يعدل عن ذلك، وفي هذه الصورة تكون كفارته (عتق رقبة، أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فإن عجز صام ثلاثة أيام متواليات.

٨ ـ **كفارة النذر:** وهو أن ينذر لله تعالى نذراً، ويكون عليه الإيفاء إذا تحقق فإذا أخل بذلك فكفارته (عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم فإن عجز صام ثلاثة أيام متواليات).

٩ـ **كفارة العهد**: والعهد أن يقول (عاهدت الله على كذا أو عليّ عهد الله أنه متى حصل الشيء الفلاني فعليّ الشيء الفلاني)، فإن أخل فعليه الكفارة، وهي (عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو اطعام ستين مسكيناً).

١٠ـ **كفارة المخالفة في الإحرام:** فإذا أخل الحاج بشرط من شروط الحج في الإحرام يكفر عن ذلك بـ (ذبيحة) على تفصيل مذكور في بحوث الحج من الفقه.

لماذا استعرضنا هذه الكفارات رأيناها تحتوي على:

١ـ عتق الرقبة:

٢ـ الصيام:

٣ ـ الإطعام للمساكين:

هذه الأمور الثلاثة: هي موضوع الكفارة المفروضة على المكلفين عند إخلالهم بشيء مما ذكرناه، أو قيامهم بأمور لا يريد الإسلام تحققها كالقتل والظهار والإيلاء.

ومن خلالها تظهر لنا فكرة التكافل والتعاون جلية واضحة ولنستعرض كلاً منها:

١: عتق الرقبة:

والمراد به تحرير العبد من الاسترقاق، وهذه عملية إنسانية تكافلية يشم فيها الإنسان نسمات الحرية بعد أن حكمت عليه الظروف أن يكون مملوكاً لآخرين.

إن العبد ليشعر بالجميل عليه، وهو يرى نفسه، وقد ألقى الطوق الذي كان يقيّده، ولابد له أن يكافئ ذلك الشخص الذي كان السبب في خلاصه من هذه العبودية، وبذلك تلتحم القوى بين المعتِق والمعتَق، ويتحسس كل منهما بما تحل بالآخر من أزمات.

٢ـ الصوم:

ويصوم الشخص نتيجة ابتلائه بهذه الكفارة ليكون رادعاً له عن الرجوع لمثل هذه المخالفة، وفي الوقت نفسه ليتحسس بآلام الفقراء والضعفاء، وليشعر بلوعة الحرمان، وما يسببه الجوع من إرهاصات قد تخرجه عن الوضع الطبيعي الذي اعتاد عليه، وليعلم أن الفقير أيضاً بشر ومن حقه أن يتمتع بهذه الحياة، ومن ثم ليملأ معدته بالطعام، وهذا التحسس كافٍ لأن يخلق منه إنساناً تكافلياً قد أحسنت تأديبه الكفارة.

٣ ـ الاطعام:

قد لا يوطن الإنسان نفسه على أن ينفق على الفقير تبرعاً وبدون سبب، ولكن الشارع بهذا الإجراء يجبره على أن يتفقد الفقير ويقدم له طعاماً ليرفع عنه غائلة

الجوع ويشبعه جزاء ما صنعه من مخالفة، وبذلك يكون الإسلام قد هيأ للضعيف مورداً من موارد العيش يقدمه الغني له من غير منٍ، ولا جميلٍ.

وعلى أي حال، إن الإسلام بتشريعه لهذا النوع من العقوبات لا يريد أن يتشفى من المكلف بإيذائه، بل يريد أن يخفف من عقابه في الآخرة ويصوغ منه إنساناً مهذباً في دنياه يحمل قلباً ملؤه الرحمة ونفساً عالية شفافة تكمن بين جوانبها كل سمات الخير والصلاة.

٢ـ الإنفاق التبرعي

لقد حث القرآن الكريم في آيات عديدة، وموارد كثيرة على البذل والإنفاق إلى الطبقات الضعيفة لإنعاشهم وإبعاد شبح الفقر عنهم.

كما وقد تعددت الأساليب التي عرض بها هذه الفكرة، والطرق التي سلكها لتحبيبها إلى النفوس.

قبل أن نبدأ:

ولنا وقفة مع القارئ قبل أن نبدأ بعرض تلك الطرق لنوفق بين هذا النوع من الحث على الإنفاق، وبين ما عرف عن الإسلام من أنه دين عمل وجد ونشاط.

فيقال، إن هذا الحث من الشارع المقدس على البذل والإنفاق قد يكون سبباً لانتشار البطالة وتشجيعاً على عدم العمل، وما على الفرد إلاّ أن يجلس في بيته ويتكل على عطايا المحسنين، أو يتكفف ويتسول ويقطع الشوارع يمد يداً لهذا وأخرى لذلك يتمتم بكلمات يستدر بها عطف المحسنين كما نشاهده في كثير من الطرقات.

وهذا النوع من الحث على الإنفاق الموجب لهذا النوع من البطالة ينافي ما عليه الإسلام، وما هو معروف من مبادئه من أنه ينكر البطالة ويحث على العمل وعدم الاتكال على الآخرين.

يقول النبي (ﷺ): (ملعون من ألقى كلّه على الناس) [١].

ويقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام):

(لنقل الصخر من قلل الجبال ... أعز اليّ من منن الرجال
يقول الناس لي في الكسب عار ... فقلت العار في ذل السؤال) [٢]

بهذا الأسلوب يواجه الإسلام الأفراد فهو دين العزة والرفعة، وهو دين الجد والعمل، ولا يريد للمجتمع أن يعيش أفراده يتسكعون ويتكففون.

فلماذا إذن يعودهم على الاتكال على غيرهم؟

للإجابة على ذلك نقول:

إن الإسلام بتشريعه الإنفاق بنوعيه الالزامي والتبرعي لم يرد للأفراد أن يتكلوا على غيرهم في مجال العيش والعمل بل على العكس نراه يحارب بشدة الاتكالية، والاعتماد على أيدي الآخرين.

بل الإسلام يكره للفرد أن يجلس في داره، وله طاقة على العمل، ويطلب الرزق من الله فكيف بالطلب من إنسان مثله.

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (أربعة لا تستجاب لهم دعوة رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالطلب؟...) [٣].

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) فيمن ترد دعوته: (ورجل جلس في بيته وقال: يا رب ارزقني) [٤].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٧، ٣٢، ح١٠، باب: استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.

(٢) الكاشاني/ المحجة البيضاء/ ٧، ٤٢٠.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ٢/ ٥١١، طبعة إيران، تصحيح وتعليق الغفاري.

(٤) المصدر المتقدم، أصول الكافي: ٢/ ٥١١.

وهناك أحاديث أخرى جاءت بهذا المضمون أن الله الذي قال في أكثر من آية: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، ووعد بالاستجابة بمجرد دعاء عبده ليكره على لسان هذه الأخبار وغيرها أن يدعو العبد بالرزق، وهو جالس لا يبدي أي نشاط وفعالية بالأسباب التي توجب الرزق.

وإذن، فالإسلام عندما شرّع بنوعيه الإلزامي والتبرعي لم يشرعه لمثل هؤلاء المتسولين بل حاربهم، وأظهر غضبه عليهم.

فعن النبي (ﷺ) أنه قال: (ثلاثة يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والغني الظلوم، والفقير المحتال) [١].

وإنما شرع الإنفاق للفقير الذي لا يملك قوت سنته، وقد اضطره الفقر لأن يجلس في داره.

وقد تضمنت آية الزكاة مصرف الزكاة فحصرت الأصناف الذين يستحقونها في ثمانية: إثنان منهم الفقراء، والمساكين، وستة أصناف لم يؤخذ الفقر صفة لهم بل لمصالح خاصة استحقوها. يقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾[٢].

وأما مصرف بقية موارد الإنفاق الإلزامي من الكفارات، والإنفاق التبرعي فكله للفقراء.

والفقراء في المصطلح الشرعي هم الذين يستحقون هذا النوع من المساعدة. كلهم أخذ فيهم أن لا يملكوا قوت سنتهم، أو كان ما عنده من المال لا يكفيه لقوت سنته، أما من كان مالكاً لقوت سنته وأخذ منها فهو محتال وسارق لقوت غيره.

---

(١) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى/ ٦، ٢٤٣، دار صادر ـ بيروت.

(٢) سورة التوبة: الآية، ٦٠.

ولا يعطى من الصدقات، وإذا أعطي من الصدقات فمن التبرعية لا الإلزامية وله عند الله حسابه لوعود نفسه على التكفف والتسول والأخذ من الصدقات التبرعية، وبه طاقة على العمل.

الطرق التي سلكها القرآن الكريم للحث على الإنفاق:

وكما قلنا أن الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم لحث الفرد على هذه العملية الإنسانية كثيرة وبالإمكان بيان أبرز صورها وهي:

١ـ الترغيب والتشويق إلى الإنفاق.

٢ـ التأنيب على عدم الإنفاق.

٣ـ الترهيب والتخويف على عدم الإنفاق.

أ: التشويق إلى الإنفاق والبذل والحث عليه:

ولم يقتصر هذا النوع من التشويق على صورة واحدة بل سلك القرآن في هذا المجال مسالك عديدة وصور لتحبيب الإنفاق صوراً مختلفة:

الصورة الأولى من التشويق:

الضمان بالجزاء

لقد توخت الآيات التي تعرضت إلى الإنفاق والتشويق له أن تطمئن المنفق بأن عمله لم يذهب سدى، ولم يقتصر فيه على كونه عملية تكافلية إنسانية لا ينال الباذل من ورائها من الله شيئاً، بل على العكس سيجد المنفق أن الله هو الذي يتعهد له بالجزاء على عمله في الدنيا، وفي الآخرة.

أما بالنسبة إلى الجزاء وبيان ما يحصله الباذل إزاء هذا العمل فإن الآيات الكريمة تتناول الموضوع على نحوين:

الأول: وقد تعرضت إلى بيان أن المنفق سيجازيه الله على عمله ويوفيه حقه، أما ما هو الجزاء ونوعيته فإنها لم تتعرض لذلك، بل أوكلته إلى النحو الثاني والذي شرح نوعية الجزاء وما يناله المنفق في الدنيا والآخرة.

١. الآيات التي اقتصرت على ذكر الجزاء فقط:

يقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[(١)].

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[(٢)]. ويظهر لنا من مجموع الآيتين أنهما تعرضتا لأمرين:

الأول: إخبار المنفق وإعلامه بأن ما ينفقه يوفّى إليه، وكلمة (وفى) في اللغة تحمل معنيين:

أحدهما: إنه يؤدي الحق تماماً.

ثانيهما: إنه يؤدي وبأكثر.

وقوله سبحانه: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ تشمل بإطلاقها المعنيين أي يعطى جزاءه تاماً بل بأكثر مما يتصوره ويستحقه المنفق.

الثاني: تطمين المنفق بأنه لا يظلم إذا أقدم على هذه العملية الإنسانية، وهذا تأكيد منه سبحانه لعبده وكفى بالله ضامناً ومتعهداً في الدارين، ويستفاد ذلك من تكرار الآية الكريمة وبنفس التعبير في الأخبار بالوفاء، وعدم الظلم وحاشا له، وهو الغفور الرحيم أن يظلم عبداً أنفق لوجهه، وبذلك تقرباً إليه.

هذا النوع من الاطمئنان للمنفق بأنه لا يظلم بل يؤدى إليه حقه كاملاً بل بأكثر.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٢.

(٢) سورة الانفال: الآية، ٦٠.

وفي آية أخرى، نرى التطمين من الله عز وجل يكون على شكل آخر فيه نوع من الحساب الدقيق مع المنفقين.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١).

ولم يتعرض سبحانه لنوعية الجزاء من الأجر بل أخفاه ليواجههم به يوم القيامة فتزيد بذلك فرحتهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾من فقرٍ، أو ملامة لأن الله عز وجل هو الذي يضمن لهم، ثم ممن الخوف؟

من اعتراض المعترضين؟ وقد جاء في الحديث (صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه) (٢)، أم من الفقر، ونفاذ المال؟ وقد صرحت الآيات العديدة بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقسم بين الناس معايشهم كما ذكرنا ذلك في الآيات السابقة.

﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وقد ورد في تفسير هذه الآية أنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين(عليه السلام) (كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهماً، وفي النهار درهماً وسراً درهماً وعلانيةً درهماً) (٣).

وتتفاوت النفوس في الإيمان والثبات فلربما خشي البعض من العطاء فكان في نفسه مثل ما يلقاه المتردد في الإقدام على الشيء.

لذلك نرى القرآن الكريم يحاسب هؤلاء ويدفع بهم إلى الإقدام على الإنفاق وعدم التوقف فيقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٤.

(٢) الشيخ إبراهيم الكفعمي: محاسبة النفس/ ١٨١، الناشر: مؤسسة قائم آل محمد (عج).

(٣) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ ٢، ١٦٠١..

(٤) سورة سبأ: الآية، ٣٩.

ومع الآية الكريمة فإنها تضمنت مقاطع ثلاثة:

١ـ قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾.

٢: قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾.

٣: قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

أولاً: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾:

ولابد للعبد أن يعلم أن الرازق هو الله، وأن بيده جميع المقاييس والضوابط فالبسط منه والتقتير منه أيضاً، وفي كلتا الحالتين تتدخل المصالح لتأخذ مجراها في هاتين العمليتين، وليس في البين أي حيف وميل بل رحمة وعطف على الغني بغناه، وعلى الفقير بفقره فكلهم عبيده وعباده وحاشا أن يرفع البعض على أكتاف الآخرين.

أما ما هي المصالح؟

فإن علمها عند الله، وليس الخفاء فيها يوجب القول بعدم وجودها.

وفي الحديث عن النبي (ﷺ) إن الله سبحانه يقول: (يا ابن آدم أطعني بما أمرتك ولا تعلمني ما يصلحك) [١].

ثانياً: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾:

فعن جابر عن النبي (ﷺ) قوله: (كل معروف صدقة، وكلما أنفق المؤمن من نفقة على نفسه وعياله وأهله كتب له بها صدقة، وما وقى به الرجل عرضه كتب له صدقة، ... وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها ضماناً) [٢].

---

(١) السيد حسين البروجردي: جامع أحاديث الشيعة/ ١٤، ٨٧، منشورات: مدينة العلم، إيران ـ قم المقدسة.

(٢) المصدر المتقدم ١٧، ٩٨.

ثالثاً: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أما أنه خير الرازقين فلأن عطاءه يتميز عن عطاء البشر.

عطاؤه يأتي بلا منة.

وعطاء البشر مقرون بمنة.

وعطاؤه من دون تحديد نابع عن ذاته المقدسة الرحيمة الودودة التي هي على العبد كالأم الرؤوم بل وأكثر من ذلك، وعطاء البشر محدود.

وكذب من قال أنه محدود العطاء: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (١).

وقد جاء عن النبي (ﷺ): (إن يمين الله ملائى لا يغيضها نفقة سخاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه...)(٢).

وقد جاء الوعد بالجزاء فقط في آيات أخرى فقد قال سبحانه:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٥).

وقد فسر قوله (عليم) أو (يعلمه) بالجزاء لأنه عالم فدلّ ذكر العلم على تحقيق الجزاء.

وفي تفسير آخر للآيات الكريمة أن معنى عليم أو يعلمه في هذه الآيات أي يجازيكم به قلّ أو كثر لأنه عليم لا يخفى عليه شيء من كل ما فعلتموه وقدمتموه لوجهه ولمرضاته عز وجل.

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٦٤.

(٢) جلال الدين السيوطي: الدرر المنثور/ ٢، ٢٩٧، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٧٣.

(٤) سورة البقرة: الآية، ٢٧٠.

(٥) سورة آل عمران: الآية، ٩٢.

٢. الآيات التي تطرقت لنوعية الجزاء:

يختلف لسان الآيات بالنسبة لبيان نوعية الجزاء فهي:

تارة: تذكر الجزاء ولا ذكر فيه للجنة.

وأخرى: تذكر الجنة وتبشر المنفق بأنها جزاؤه.

ما ذكر فيه الجنة أيضاً **جاء على قسمين**:

فتارة: نرى الآية تقتصر على ذكر الجنة جزاء.

وثانية: تحبب إلى المنفق عمله فتذكر الجنة وما فيها من مظاهر تشتاق لها النفس كالأنهار والأشجار وما شاكل.

ومن الإجمال إلى التفصيل:

يقول سبحانه:

﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[1].

﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾، إنما أداة حصر تفيد أن ما بعدها هم المؤمنون هؤلاء الذين عددت الآية الكريمة صفاتهم وهم الذين جمعوا هذه الصفات.

وكانت صفة الإنفاق من جملة مميزات المؤمنين وصفاتهم التي بها نالوا هذا التأكيد من الله سبحانه بقوله: ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ .

أما ما أعدّ لهم من جزاء فهو:

﴿ **دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ وهي الحسنات التي استحقوا بها تلك المراتب العالية.

﴿ **وَمَغْفِرَةٌ** ﴾ لذنوبهم من غير حساب على ما فعلوه في هذه الدنيا من مخالفات.

---

(١) سورة الانفال: الآيات، ٢ ـ ٤.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو رزق لا يصيبه ضرر، ولا يخاف من نقصانه لأنه من الله جلت عظمته، وما كان من الله ينمو وتكون فيه البركة فهو رزق كريم طيب ومن كريم.

وفي آية كريمة أخرى يقول عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

هؤلاء هم من جملة من أعد الله لهم المغفرة والأجر العظيم جزاء على هذا الصفة، وهذا الشعور التعاطفي بالحنو على الضعيف.

وأما الآيات التي ذكرت الجنة جزاء للمنفق فمنها قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[2].

يقف الإنسان عند هذه الآيات، وهو يرتلها بخشوع ليلحظ من خلالها أنها فرقت بين صنفين من الناس كافر، ومؤمن، وقد وصفت الكافر أنه (أعمى) لا يتذكر، ولا ينفع معه شيء.

أما المؤمن: وهو من يتذكر فإنه ينظر بعين البصيرة، وقد شرعت ببيان أوصاف

---

(١) سورة الاحزاب: الآية، ٣٥.

(٢) سورة الرعد: الآيات، ١٩ ـ ٢٣.

هؤلاء المؤمنين، ومن جملة صفاتهم أنهم الذين ينفقون مما رزقناهم سراً وعلانيةً.

في السر: فإنما هي لرعاية الفقير وحفظ كرامته لئلا يظهر عليه ذل السؤال.

ويحدثنا التاريخ عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أنهم كانوا إذا أرادوا العطاء أعطوا من وراء ستار حفاظاً منهم على عزة السائل وكرامته، وتنزيهاً للنفس لئلا يأخذها العجب والزهو فتمن على السائل بهذا العطاء فيذهب الأجر.

أما في العلانية: فإنما هو لتشجيع الآخرين على التسابق على الخير والإحسان أو لدفع التهمة عن النفس لئلا يرمى المنفق بالبخل والامتناع عن هذا النوع من التعاطف الإنساني.

أما جزاؤهم: فهو العاقبة الحسنة، وأن لهم الجنة جزاء قيامهم بهذه الأعمال الطيبة وتفقدهم لهؤلاء الضعفاء في جميع الحالات سراً وعلانيةً.

وفي آيات أخرى نرى القرآن لا يقتصر على ذكر الجنة فقط كجزاء للمنفق بل يتطرق لبيان ما فيها وما هي ليكون ذلك مشوّقاً للمنفق في أن يقوم بهذه الأعمال الخيرة لينال جزاءه في الآخرة.

قال تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

وقد جلت عظمته:

﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان، ١٣٣ و ١٣٤.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [(١)].

وقد تضمنت الآيات نحوين من الجزاء:

الأول: جزاء حسي.

الثاني: جزاء روحي.

أما الجزاء الحسي: فيتمثل بقوله تعالى في الآية الأولى:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

وفي الآية الثانية فيتمثل بقوله تعالى:

﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

وتأتي هذه الصفات أو المشوقات للجنة من كونها بهذا الحجم الواسع عرضاً فكيف بالطول لأن العرض غالباً يكون أقل من الطول، ومن أن فيها الأشجار، ومن تحت تلك الأشجار الأنهار الجارية وفيها أزواج، وتلك الأزواج مطهرة من دم الحيض والنفاس، ومن كل الأقذار والقبائح وبقية الصفات الذميمة.

تأتي كل هذه الصفات لما تشتهيه النفس، وما اعتادت على تذوقه في الدنيا من مناظر الأشجار والأنهار والنساء، وأن ذلك غير زائل، بل هو باقٍ وكل هذه أمور محببة للنفس، وقد استحقها المنفق جزاء تعاطفه وإنفاقه في سبيل الله ونيل مرضاته جلت عظمته.

أما الجزاء الروحي: فيتمثل بقوله تعالى في الآية الأولى:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

رضا الله ومحبته له والتفاته وعطفه كل هذه غاية يتوخاها الإنسان ويبذل بأزائها كل غالٍ ونفيس، وما أسعد الإنسان، وهو يرى نفسه محبوباً لله سبحانه راضياً عنه.

على أن في الأخبار بالرضا والمحبة في آيتين تدرجاً ظاهراً وواضحاً فإن المحبة

---

(١) سورة آل عمران: الآيات، ١٥ ـ ١٧.

أمر أعمق من مجرد الرضا وواقع في النفس من ذلك.

وصحيح أن الإنسان يسعى جاهداً ويقوم بكل عبادة ليحصل على رضا الله، ولكن محبة الله له هي معنى له تأثيره الخاص في النفس.

إن عباد الله المؤمنين يشعرون بهذه اللذة، وهذه الراحة النفسية عندما يجد الفرد منهم أنه مورد عناية الله في توجهه إليه.

الصورة الثانية من التشويق:

جعل المنفقين من المتقين أو المؤمنين

ويتحول القرآن الكريم إلى إعطاء صورة أخرى من صور التشويق للإنفاق والبذل والعطاء، فنراه يرفع من مكانة هؤلاء المحسنين، ويجعلهم بمصاف النماذج الرفيعة من الذين اختارهم وهداهم إلى الطريق المستقيم.

ففي آية يعدّهم من أفراد المتقين، وفي أخرى من المؤمنين، وفي ثالثة يقرنهم بمقيمي الصلاة، والمواظبين عليها، وهو تعبير يحمل بين جنباته بأن هؤلاء من المطيعين لله والمواظبين على امتثال أوامره يقول سبحانه عز وجل:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[١].

ومن خلال هذه الآية نلمح صفة الإنفاق وما لها من الأهمية بحيث كانت إحدى الركائز الثلاثة التي توجب إطلاق صفة المتقي على الفرد.

فمن هم المتقون؟

ويأتينا الجواب عبر الآية الكريمة بأنهم:

---

(١) سورة البقرة: الآيتان، ٢ و ٣.

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾:

يؤمنون بما جاء من عند الله من أحكامه وتشريعاته، وما يخبر به من المشاهد الآتية من القيامة والحساب والكتاب والجنة والنار، وما يتعلق بذلك من مغيبات يؤمنون بها، ولا يطلبون لمثل هذا الإيمان مدركاً يرجع إلى الحس والنظر والمشاهدة بل تكفيهم هذه الثقة بالله وبما يعود له.

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾:

فهم في مقام أداء فرائضهم مواظبون ولا يتأخرون ويتوجهون بعملهم إلى الله يطلبون رضاه، ولا يتجهون إلى غيره، يعبدونه ولا يشركون معه أحداً، وأداء الصلاة هو مثال الخضوع والعبودية بجميع الأفعال، والأقوال.

يقف الفرد في صلاته خاشعاً بين يدي الله ويركع ويسجد له، ويضع أهم عضو في البدن وهو الجبهة على الأرض ليكون ذلك دليلاً على منتهى الإطاعة والخضوع، ويرتل القرآن ليمجده ويحمده ويسبحه ويهلله فهي إذن، مجموعة أفعال وأقوال ترمز إلى الإذعان لعظمته والخضوع لقدرته، وبذلك تشكل عبادة فريدة من نوعها لا تشبهها بقية العبادات.

﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾:

كل ذلك من الجوانب الروحية، وأما من الجوانب المالية، فإن المال لا يقف في طريق وصولهم إلى الهدف الذي يقصدونه من الاتصال بالله فهم ينفقون مما رزقناهم غير آبهين به، ولا يخافون لومة لائم في السر والعلن، وفي الليل والنهار كما حدّث القرآن الكريم في آيات أخرى مماثلة.

هؤلاء هم المنفقون الذين كان الإنفاق من جملة مميزاتهم، وقد مدحهم الله جلت قدرته بقوله:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [١].

﴿ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ :

بلى: هدى وبصيرة فلا يضلون ولا يعمهون في كل ما يعود إلى دينهم ودنياهم.

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ :

بكل شيء مفلحون في الدنيا بما ينالهم من عزٍ ورفعة لأنهم خرجوا من ذل معصية الله إلى عز طاعته تماماً كما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (إذا أردت عزاً بلا عشيرة وهيبةً بلا سلطان فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته) [٢].

ومفلحون في الآخرة التي وعدهم بها كما جاء ذلك في آيات عديدة من كتابه الكريم.

ولم يقتصر الكتاب على هذه الآية في عد الإنفاق من جملة صفات المتقين بل تدرج مع الذين ينفقون من المتقين حيث قال سبحانه:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [٣].

ومن خلال هذه الآية نرى الأهمية للإنفاق تبرز بتقديم المنفقين على غيرهم من الأصناف الذين ذكرتهم الآية، والذين اعدت لهم الجنة من الكاظمين والعافين.

هؤلاء المنفقون الذين لا يفترون عن القيام بواجبهم الاجتماعي في حالتي اليسر والعسر في السراء والضراء يطلبون بذلك وجه الله والتقرب إلى ساحته المقدسة.

وعندما نراجع الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٥.

(٢) من كلماته (عليه السلام) في نهج البلاغة.

(٣) سورة آل عمران: الآيتان، ١٣٣ و ١٣٤.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

نرى نفس الموضوع تكرره الآية هنا، ولكن في الآية السابقة قالت عن المنفق بأنه من المتقين، وهنا من المحسنين.

وفي الآية السابقة الإنفاق بكل ما ينفق وهنا عن الإنفاق بالزكاة، فالنتيجة لا تختلف كثيراً، والصورة هي الصورة نفسها إنفاق من العبد، وتشويق من الله، ومدح له بنفس ما مدح المتقي سابقاً.

والحديث في الآيتين عن المتقين والمحسنين، ومن جملة صفاتهم الإنفاق وأداء ما عليهم من الواجب الاجتماعي المتمثل في الإنفاق التبرعي أو الإلزامي، وقد قال عنهم في نهاية المطاف بنفس ما مدح به المتقين في الآية السابقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2].

وفي وصف جديد في آية كريمة أخرى يصفهم الله بأنهم من المخبتين:

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[3].

(والمخبتون): هم المتواضعون لله المطمئنون إليه.

وعندما شرعت الآية بتعدادهم قالت عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

أنها النفوس المطمئنة التي إذا ذكر الله، ـ وذكر الله هنا التخويف من عقابه وقدرته وسطوته ـ وجلت قلوبهم أي دخلها الخوف، ولكنه خوف مشوب برجاء عطفه ورحمته، ولا يأس معه من روح الله لأنه:

---

(١) سورة لقمان: الآيات، ١ ـ ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية، ٥.

(٣) سورة الحج: الآيتان، ٣٤ و ٣٥.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١]، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾:

من البلايا والمصائب، ولكنهم صابرون ليجتازوا عقبة الامتحان فتصفى بذلك نفوسهم وتعرف بهذا التحمل قدراتهم وطاقاتهم الروحية في اجتياز هذه العقبات الامتحانية، وهم في الوقت نفسه. تقول عنهم الفقرة الآتية من الآية:

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

لا يغفلون عن أداء هذا الواجب العبادي المهم رغم ما أصابهم من بلاء، وما ابتلوا به من محن لأن صبرهم على ذلك أيضاً من العبادة لأنه تحمل لوجه الله وتقرب بذلك إليه تماماً كما يؤدون واجباتهم العبادية الأخرى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

ينفقون رغم ما نزل بهم من البلاء ورغم ثباتهم في وجه الأعاصير ينفقون مما رزقهم الله.

ويهيب الله بالمنفقين في آية أخرى فيقول عنهم:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢].

هؤلاء هم المؤمنون حقاً ومن هم؟

وتبدأ الآية الكريمة بذكر أوصافهم أنهم:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

---

(١) سورة يوسف: الآية، ٨٧.

(٢) سورة السجدة: الآيتان، ١٥ و ١٦.

هؤلاء هم الذين إذا تليت عليهم آيات الله خروا سجداً، ولا يخفى ما في التعبير بقوله: (خروا) من لطف وأدب واحترام وخضوع لله شكراً على هدايته لهم بمعرفته وبما أنعم عليهم من نعمة يسبّحونه ويحمدونه على ذلك، وفي الوقت نفسه يقومون بكل ذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

عن عبادته ولا يرون لأنفسهم علواً بازائه، ولا يتحرجون من السجود له بتعفير جباههم.

وبتعفير جباههم سجوداً على الأرض سمة تدل على منتهى الخضوع والذلة لو كانت من إنسان لإنسان، ولكنها حيث تكون لله تعطي منتهى الرفعة والسمو لأنه سجود لله وخضوع لسلطانه، ومن أكبر من الله عز وجل، ومن أعظم منه جلت قدرته.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾:

والتعبير بالتجافي فيه تصوير دقيق لحالة اولئك المؤمنين، وهم يتركون المخادع مع شدة تعلقهم بالنوم، وما فيه من لذة وراحة ليقفوا خاشعين بين يدي الله يسبحونه ويقدسونه.

وقد جاء عن النبي (ﷺ) (أنه ذكر قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ :

يتركون المخادع ويشرعون في مناجاتهم وصلواتهم وهم في حالة مزيجة بين الخوف والطمع.

الخوف: من عذاب الله وعقابه.

والطمع: برحمته وعفوه.

وهؤلاء المؤمنون لا يقتصرون على واجباتهم العبادية إزاء الخالق سبحانه، بل هم - في الوقت نفسه - يلتفتون إلى واجباتهم الاجتماعية إضافة إلى الواجبات الروحية.

ففي الوقت الذي تراهم يحنون إلى الليل وإلى هدوئه الشامل الذي يخيّم على المخادع نراهم يؤدون ما عليهم إزاء هؤلاء المعوزين لينفقوا بما فرضه عليهم الواجب الاجتماعي، وقد أخبرت عنهم الآية في قوله سبحانه:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

الصلاة عبادة روحية والإنفاق عبادة اجتماعية وكلا هذين عبادة، وهل يتركهم الله، وهم يتقربون إليه ويتشوقون للقائه وللوقوف بين يديه؟

وتتولى الآية نفسها الجواب على ذلك فيقول سبحانه:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وصحيح أنهم لا يعلمون ما أخفي لهم فالإنسان في تفكيره محدود مهما ذهب به الأمل بعيداً، ولكن رحمة الله واسعة، وليبقى الجزاء لهم مذخوراً لا يعلم به أحد إلى يوم يلقونه، ولتقر به أعينهم يوم الجزاء.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[2].

وقد تعرضنا لهذه الآية في جانب من جوانبها، وهو ما تعرضت له من بيان الجزاء للمنفقين، وبقي علينا أن نرى ما تعرضت له من الجانب الآخر، وهو الإشادة بالمنفقين

---

(١) سورة السجدة: الآية، ١٧.

(٢) سورة آل عمران: الآيات، ١٥ - ١٧.

والأخذ بيدهم إلى الدرجة الرفيعة التي ينالها عباد الله المتقون تقول الآية الكريمة:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾.

هؤلاء المؤمنون الذين يتمتعون بجنات ربهم، وهم الذين يخشونه ويتوجهون إليه بقلوب مفعمة بالإيمان وبألسنة رطبة بذكر الله يرددون ويلهجون متضرعين يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

وهؤلاء هم، وقد وصفتهم الآية:

بـ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾:

على البلاء يمتحنهم الله في هذه الدنيا لتهذيب نفوسهم وصقلها ليكونوا قدوة لغيرهم ومثالاً للإيمان الراسخ والعقيدة الثابتة.

﴿وَالصَّادِقِينَ ﴾:

لأنهم عرفوا أن الكذب منقصة للنفس وخيانة في حق الآخرين فتركوه.

﴿وَالْقَانِتِينَ ﴾:

وهم المطيعون لربهم تعلقوا به وأخلصوا له العبودية فكانوا قانتين.

﴿وَالْمُنفِقِينَ ﴾:

مما آتاهم الله ورزقهم أداءً لحقه وشكراً على ما أنعم عليهم ورعاية لحق هؤلاء المحرومين.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾:

وهو الوقت الذي يخلو به الحبيب لحبيبه يقومون بين يدي الله إذا جنهم الليل متجهين بقلوب مملوءة بالإيمان يستغفرونه، ويسبحونه.

يقول في وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام):

(أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً يُحزِنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامعهم مع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله فكاك رقابهم) [1].

هؤلاء المؤمنون، وهم المنفقون لأموالهم في سبيل الله وطبيعي أن يكون جزاءَهم من الله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ويظلل كل ذلك رضوان من الله، وهو غايتهم في الدنيا والآخرة.

الصورة الثالثة من التشويق:

الإنفاق ينمّي المال

القرآن الكريم يتكلم مع الناس من خلال واقعهم العملي في حياتهم اليومية، ولذلك فهو حينما يشوّقهم إلى شيء إنما يعرض عليهم صوراً مألوفة لهم يتوخى من وراء ذلك أن يحفّز مشاعرهم للوصول نحو هدفه المنشود.

وفي خصوص ما نحن فيه فإن القرآن عندما يشوّقهم إلى الإنفاق يصور لهم فوائد من طريق الربح والفائدة الخارجية.

ذلك، لأن النفس مجبولة على حب المال وتتشوق في كل وقت إلى النفع والزيادة.

ولأن هذا المعنى يعيشونه في كل يوم فهم يألفون له عندما يمثل لهم به من خلال عرض قضية، أو تشويق لشيء، وبما أن الحياة العملية تعتمد وبشكل رئيسي في

---

(١) من خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام): في نهج البلاغة قالها في وصف المتقين.

واقعها الخارجي على أمرين مهمين في طريق الكسب والإنتاج، وهما التجارة والزراعة.

وحيث أن لكل من هذين مفاهيمه الخاصة وصوره المنطبعة في الأذهان، لذا نرى القرآن الكريم، ومن هذا المنطلق أخذ يكلم الأفراد ويشوقهم إلى الإنفاق بعرض صورٍ مألوفة لديهم ليتوصل بها إلى الغاية المطلوبة له من الحث على البذل والسخاء.

١. الإنفاق. تجارة لن تبور:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [1].

هذه التجارة هي التي يقصدها عباد الله المؤمنون يدفعون المال لوجهه لأجل الوصول إلى غايتهم المحببة، وهي رضا الله والتقرب إليه.

فهم يتلون كتاب الله بتفهم لما فيه، ويقيمون الصلاة ويواظبون على أدائها.

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾:

ينفقون مما رزقهم في السر والعلن يقصدون بذلك النماء الذي يحصل من هذه التجارة التي لا كساد فيها، ولا تبور، ولا يكتب لها الخسران.

ولماذا تكسد؟

أو لم تبور؟

أو لماذا تلحقها الخسارة؟

وطرف المعاملة الذي هو الله، وليس هو الفرد من البشر، وليس هذا النوع من الكسب فيها يشبه الكسب السوقي الذي يؤمل فيه الربح كما هو متوقع فيه الخسران.

---

(١) سورة فاطر: الآيتان، ٢٩ و ٣٠.

بل كسب كله ربح.

لا كسب يؤمل فيه الربح.

ونماء كله بركة، لأن الضامن في هذه التجارة والطرف فيها هو الله سبحانه، وهو الذي يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور.

ويأتي الجزاء هنا متدرجاً على ثلاثة مراحل:

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾:

فلا يجدون في ذلك أي نقص، ولا خسارة، بل يوفيهم بما تعطيهم هذه الكلمة من معنى دقيق يدل على عدم وجود أي نقص في الحساب.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾:

وهنا تتجلى الروعة في العطف والرحمة ليتبين الفرق بين المعاملتين المعاملة بين الأفراد أنفسهم والمعاملة بين الفرد وربه.

إن الله لا يرضى لنفسه أن يعامل عباده معاملتهم لأنفسهم، بل لابد من حصول المايز بين المعاملتين.

معاملة يكون الإنسان طرفاً فيها لإنسان آخر.

ومعاملة يكون الله طرفاً فيها لعبد من عباده.

ففي الأولى نرى للحساب الدقيق مجالاً فيها، وقد تجر المعاملة إلى نزاع وشجار بين الطرفين، أو الأطراف حول مقدار قليل من المال.

أما لو كانت المعاملة بين الخالق ومخلوقه فإنه سبحانه بلطفه وكرمه يزيدهم من فضله، وقد جاء عن النبي (ﷺ) قوله: (ما نقص مال من صدقة قط فأعطوا ولا تجبنوا)[1].

ولا يكتفي بذلك بل:

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٦، ١٣١، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

يغفر للعبد ذنوبه جزاء قيامه بهذا العمل الإنساني، وهذا التقرب لوجهه وشكور على هذه الأريحية من المعطي وتحسسه بآلام غيره، والشكر من الله يختلف عن شكر الإنسان.

إذ أن شكر البشر لا يتعدى عن الكلام المعسول وإظهار العطف واللطف، وقد يتعدى إلى جزاء دنيوي سرعان ما يذهب ويتلاشى.

أما الشكر من الله فهو العطاء المتواصل والجزاء المضاعف، وجنة أنهارها جارية، وبارك الله للعبد بهذه التجارة.

٢. الإنفاق. ينمي المال كما تنبت الأرض الزرع:

بعد أن صور القرآن للفرد النماء الحاصل من الإنفاق كنماء الكسب والتجارة بدأ يضرب له مثلاً يعيشه الفرد أيضاً في هذه الحياة ذلك هو مسألة الأرض والزرع، هذا المنظر المألوف لكل أحد، حيث يرى الفرد منّا الزارع في الحقل يزرع ويسقي وينتظر ليحصل من وراء هذا الزرع النماء الذي يباركه الله.

لذلك جاءت الآيات الشريفة تقرب عملية الإنفاق وحصول البركة فيه إلى الأذهان بهذا النوع من التشويق وكلاهما واحد يزرع الزارع، وينتظر رحمة ربه، وينفق المنفق وينتظر عطاء ربه.

يقول سبحانه: **﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**(١).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٥.

هذه العملية تماماً كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، والربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار وعندما يصيبها المطر تنبت تلك الربوة فتؤتي ثمارها ضعفين بركةً من الله في ذلك النتاج.

وكذلك في العملية الإنفاقية يضاعفها الله بركةً منه على عبده.

فعن قتادة قال: (هذا مثلٌ ضربه الله لعمل المؤمن يقول: ليس لخيره خلف كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال كان إن أصابها وابل، أو أصابها طل...) [١].

الطل: (الرذاذ من المطر يعني اللين منه) [٢].

وفي آية أخرى يقول الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣].

وليس كل نماء يؤتى أكله ضعفين كما في الآية السابقة، بل بعض النماء يتضاعف فيصل إلى سبعمائة كما تصرح به هذه الآية الكريمة فهي حبة واحدة أنبتت سبع سنابل، وفي كل سنبلة مائة حبة، وطبيعي أن يكون ناتج كل حبة سبعمائة حبة، ومثل ذلك أجر من أنفق.

فعن النبي (ﷺ) (ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز وجل كانت بسبعمائة ضعف) [٤].

وفي حديث آخر: (ومن أنفق في سبيل الله ضعفت له نفقته الدرهم بسبعمائة،

---

(١) السيوطي: الدر المنثور/ ١، ٣٤٠.

(٢) المصدر المتقدم، الدر المنثور/ في تفسير للآية ٢٦٥ من سورة البقرة.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٦١.

(٤) ابن كثير: تفسير ابن كثير/ ٢، ٢٠٥، تحقيق وتقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

والدينار بسبعمائة)[١].

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾:

فالقضية تعود إليه، وتناط بكرمه ولطفه فهو يضاعف لمن يشاء، ولا حرج في ذلك عليه، ولا ينقص من ملكه شيء، وأن من يبخل هو الذي يخاف الفقر، وهو الإنسان، أما الله فلا يخاف فقراً، ولا نهاية لعطائه إذ لا حد لملكه، ولا حد لعطفه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

وإنما يضاعف لمن يشاء، ولا يخشي الفقر لأنه واسع في عطائه، واسع في رزقه واسع في فضله لا يعطي على قدر ما يصل إليه، بل عطاء ثر ولطف عميم.

٣. الإنفاق. قرض يضاعفه الله:

يقول سبحانه وتعالى:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٢].

والقرض عملية شائعة بين الناس يحتاج الإنسان إليها مالاً، أو نقداً فيستقرض ما يحتاج إليه من أجل أو غير أجل، وإذا زيد على القدر المستقرض شيء فهو من الربا الذي حاربه الله، ومنعه، وتوعد عليه لأن كل قرض جرّ نفعاً إلى المقرض فهو ربا، هذا بين الناس.

وهذا القرض لو كان بين الفرد وبين الله فلا ربا بين العبد وربه، لذلك جاءت الآيات تحبب إلى المنفق عمله فتجعل من عطائه إلى الفقير قرضاً منه إلى الله سبحانه، ومن ذلك ينتج، أن عملية القرض هذه **تتألف من أطراف ثلاثة:**

الطرف الأول: المنفق، وهو الدائن.

الطرف الثاني: الله سبحانه، وهو المدين.

---

(١) السيوطي: الدر المنثور/ ١، ٣٣٦.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٤٥.

الطرف الثالث: وهو الفقير، المستفيد.

ولكن لو تساءلنا ما وراء هذا القرض من نفع إلى المنفق؟ فإن الجواب سيظهر لنا من خلال الآيات الآتية.

وقبل أن نستعرض تلك الآيات لابد أن نقول: إن الإنسان ليقف حائراً، وعلامات الاستفهام تأخذ عليه مسالك التفكير عندما يرى القرآن الكريم يكرر هذا الطلب من الله في موارد ستة، وهو يطلب منهم أن يقرضوه قرضاً حسناً، ولهم عليه الجزاء الأوفر، وهذا إن دلّ فإنما يدل بشكل واضح على مدى الاهتمام الذي يوليه الله لهذه العملية الإنسانية.

فالله هو الذي أنعم على الإنسان فأعطاه المال ورزقه وكفل له معيشته وتفضل عليه ـ مع كل ذلك ـ نراه يعود ليجعل من نفسه مستقرضاً.

وممن؟

من الذي وهب له المال وأعطاه النعمة، وهو المنفق.

ولمن؟

إلى الطبقات المحرومة الضعيفة.

ولماذا؟

وكان بإمكانه أن يرزق الفقير من غير حاجة إلى مثل هذا القرض.

ولابد لنا أن نتخطى، ولا نعير لهذه الاستفهامات أهمية، إذا عرفنا أن الله سبحانه يريد أن يشمل كلاً من الطرفين المنفق، والفقير برحمته، وإن استدعى ذلك أن يتحمل هو عبء العملية القرضية فهو الرحيم، وهو الرحمن، وهو الذي خلق هذا الخلق فكانوا عيالاً عليه.

خيره إليهم نازل.
وشرهم إليه صاعد.

ومع ذلك فهو يحوطهم برحمته ويكلؤهم برعايته.

أما ما يستفيده الطرف الأول، وهو المنفق فإن الآيات الكريمة وعدته بالجزائين الدنيوي والأخروي.

في الدنيا: ويتمثل في الآيات الكريمة:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (١).

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ (٢).

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (٣).

وهذا هو الجزاء في الدنيا يضاعف له ما أعطاء بأضعاف كثيرة ـ كما في الآية الأولى ـ من الرزق، وبذلك ليطمئن المنفق بأن ما ينفقه سيخلف عليه، وسيرجع له ولكن بأضعاف كثيرة لأن الآية نفسها تعقب على هذه المضاعفة بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٤):

وإذا كان القبض والبسط في الرزق منه سبحانه، وقد قال في صدر الآية بأنه سيضاعف للمنفق فهو وعد منه ووعده الحق وحاشا له أن يتخلف عما يعد به.

هذا هو الأجر في الدنيا.

وأما الأجر في الآخرة، فقد اختلفت الآيات في طريقة الإخبار به، ففي بعضها نرى أنها تعد بالمغفرة فقط حيث قال سبحانه:

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٤٥.

(٢) سورة الحديد: الآية، ١٨.

(٣) سورة التغابن: الآية، ١٧.

(٤) سورة البقرة: الآية، ٢٤٥.

(٥) سورة التغابن: الآية، ١٧.

وليس هذا الجزاء بالشيء القليل حيث يحصل المنفق من وراء إنفاقه أن يغفر الله ذنوبه، وبعد هذا له من الله الشكر على ما قدم للمحرومين في هذه الحياة.

أما البعض الآخر فإنها تطرقت لذكر الأجر من غير تفصيل لنوعية الأجر فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ (٢).

ولكن هذا الأجر يأتي في آيات أخرى، وقد بانت نوعيته فقال سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ﴾ (٣).

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٤).

وهذا هو الجزاء الأخروي تعرضه الآيتان فيهما ما يحفز المنفق على الإسراع بهذا النوع من العطاء ليحصل على هذا النعيم الأبدي.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾:

أي نور هذا الذي يلف هؤلاء المؤمنين فيأخذ اشعاعه بالأبصار؟

وأي نور هذا الذي يميزهم عن بقية الناس في ذلك اليوم؟

---

(١) سورة الحديد: الآية، ١٨.

(٢) سورة المزمل: الآية، ٢٠.

(٣) سورة المائدة: الآية، ١٢.

(٤) سورة الحديد: الآيتان، ١١ و ١٢.

إنه نور جللهم الله به وأضفاه عليهم!

وهل يكتفي العلي القدير بهذا التقدير، وهذا القدر من الجزاء؟

ويأتينا الجواب واضحاً تضيفه تكملة الآية الشريفة في قوله تعالى:

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

يناديهم المنادي ويبشرهم بهذه الجنات جزاء عملهم، وقد شهد الله لهم بأن ذلك هو الفوز العظيم.

ويدلنا على أنه سبحانه سيضاعف العطاء لمن أعطى في سبيله ما صرح به في الآية التالية حيث قال سبحانه:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (٢).

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾:

والمحق هو الهلاك والإتلاف للشيء، وفي المعاملة الربوية يتكفل الله بموجب هذا التصريح أنه يمحق ذلك المال أو يستأصله ويتلفه لأنه مال لوحظت فيه الزيادة غير المشروعة فهو محق وهلاك له.

﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾:

ولكنه في المعاملة التي تكون بين الله وعبده عندما يستقرض الله منه فإنه يربيها ويزيدها وينعشها، وذلك لأن طلب الزيادة في القرض إن كان على حساب الغير وبين الناس أنفسهم فهو رباً لا يدعه الله حتى يمحقه.

وقد قيل للإمام الصادق (عليه السلام): (وقد يربى الرجل فيكثر ماله، فقال: يمحق الله دينه وإن كثر ماله) (٣).

---

(١) سورة الحديد: الآية، ١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٧٦.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

ولكنه لو كان على حساب الله وطلب مرضاته فهو الذي يتكفل بإنمائه ويبعث البركة فيه.

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (إن من عبادي من يتصدق بشق تمرة فأربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى أجعلها له مثل جبل أحد)[١].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[٢].

وقد فصلت الآية الكريمة بين مالين قصد من المعاملة بهما النماء والزيادة.

الأول: معاملة ربوية يكون أطرافها البشر أنفسهم.

الثاني: معاملة ربوية تجري بين العبد وربه.

وقد قالت الآية في المعاملة الأولى أنها لا تربوا أي لا تنمو ولا يباركها الله.

أما عن الثانية، فقد قالت بأن الله يباركها ويضاعفها. والسبب واضح، ففي المعاملة الأولى: تؤخذ الزيادة من المستقرض لصالح المقرض، وفي ذلك إنهاك لهذا الطرف وتفتيت للمال بواسطة القرض.

أما في المعاملة الثانية: فإن الزيادة يعطيها الله لعبده المنفق من غير أن ينقص من مال الله شيء، وهذا هو النماء الحقيقي الباقي الذي تشمله بركة الله، أما المال الذي يحصل من الربا فلا يكتب له التوفيق بل هو مال سحت يبغضه الله سبحانه.

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٣٨١، ح٦، باب: استحباب الصدقة ولو بالقليل على الغني والفقير.

(٢) سورة الروم: الآية، ٣٩.

الصورة الرابعة من صور التشويق:

الله يأخذ الصدقات

وهذا نوع من التشويق تصرح به الآية الكريمة، والأخبار الكثيرة حيث تخبر المنفق بأن الطرف في هذه العملية الإنسانية الطيبة هو الله لا الفقير لتصريحها بأن الله يأخذ الصدقات، أو هو يتقبلها، أو أن الصدقة تقع في يده أولاً، ومن ثم ليد الفقير على اختلاف في العبارات التي وردت في الآية، أو الأخبار إلاّ أنها على اختلافها ترمز إلى معنى واحد، وهو أن الفقير واسطة بين الله والمنفق فهذا يعطي وذاك يأخذ.

يقول سبحانه:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١).

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة مطالب ثلاثة عطف أحدهما على الآخر فكان الحكم في الجميع واحداً.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾.

وهذا هو المطلب الأول، ولا مجال للشك في أن قبول التوبة من العبد مختص بالله وحده لتصريح الآية بذلك، ولأنه هو الذي يغفر الذنوب صغيرها وكبيرها.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾:

---

(١) سورة التوبة: الآية، ١٠٤.

وهذا هو المطلق الثاني، وبحكم العطف في الآية لابد أن نقول: إن من يأخذ الصدقة من المنفق هو الله لأنه كما يقبل التوبة من عباده، وأن ذلك مختص به كذلك هو يأخذ الصدقات.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

وهذا هو المطلق الثالث، حيث أخبر عن نفسه بأنه التواب، وهو مبالغة في قبوله للتوبة، وهو الرحيم بعباده فلا يستوحش العبد إذن من ذنوبه إذا كان الغافر هو التواب الرحيم.

ولا يأس من الجزاء إذا كان آخذ الصدقة هو الله سبحانه، وأنها تقع بيده أولاً.

فعن جابر عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) تصدقت يوماً بدينار، فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله): أما علمت يا علي، إن صدقة المؤمن لا تخرج من يده حتى يفك عنها من الحي سبعين شيطاناً، وما تقع في يد السائل حتى تقع في يد الرب جل جلاله ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [1].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان أبي إذا تصدق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتجعه منه فقبله وشمه ثم رده في يد السائل فأحببت أن اقبلها إذ وليها الله...) [2].

وفي آخر ورد عنه (عليه السلام) (صدقة الليل تطفيء غضب الرب، وتمحو الذنب العظيم وتهون الحساب وصدقة النهار تزيد في العمر وتثمر المال) [3].

وفي أخبار أخر جاءت عن الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً: (ما من شيء إلاّ وكلّ

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٣٧٠، ح١٢، باب: تأكد استحبابها (الصدقة) مع كثرة المال وقلته ومع الدين.

(٢) وسائل الشيعة: ٩، ٤٣٤، ح٥، باب: استحباب تقبيل الإنسان يده بعد الصدقة.

(٣) وسائل الشيعة: ٩، ٣١١، ح٧، باب: استحباب إخراج الزكاة المفروضة علانية والصدقة المندوبة سراً، وكذا سائر العبادات.

به ملك إلاّ الصدقة فإنها تقع في يد الله تعالى) [(١)].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال الله تعالى: أنا خالق كل شيء وكلت بالأشياء غيري إلاّ الصدقة فإني أقبضها بيدي حتى أن الرجل أو المرأة يتصدق بشقة التمرة فأربيها له كما يربي الرجل منكم فصيله وفلوه [(٢)] حتى أتركه يوم القيامة أعظم من أحد) [(٣)].

ولماذا إذن، يتأخر المنفق، أو يتقاعس عن القيام بمثل هذا التقديم لله، والله هو الذي يأخذ منه ويوفي له حسابه.

الصورة الخامسة من التشويق:

الإسراع بالتصدق قبل فوات الأوان

وتنحو آيات ثلاث من القرآن نحواً جديداً في الحث والتشويق على الإنفاق ذلك إنها أخذت تذكر الناس بأن يسارعوا إلى تقديم هذه المعونات إلى الفقراء ما دامت الفرصة حاصلة لهم وبامكانهم أن يعملوا أعمالاً صالحة تكون لهم المخزون الاحتياطي ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون وتحذرهم من مغبة اليوم الذي يقف الموت حائلاً بينهم وبين كل حركة لهم.

يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا

(١) وسائل الشيعة: ٩، ٤٣٤، ح٦، باب: استحباب تقبيل الإنسان يده بعد الصدقة.

(٢) الفلو: بالكسر المهر المفطوم أو الذي بلغ سنة.

(٣) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٣، ١٢٧.

شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١).

وفي آية أخرى:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (٢).

ذلك اليوم الذي تقف فيه الحركة التجارية فلا بيع ولا شراء، ولا صديق يقف إلى جانب صديقه، ولا شفيع يشفع لصاحبه.

ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، وقد بلغت القلوب الحناجر.

ذلك اليوم الذي ينادي من فاته الركب:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ (٣).

فيأتيه الجواب: ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾ (٤).

إن القرآن يهيب بالإنسان أن يعمل صالحاً بإقامة الصلاة، وهو الواجب الروحي وبالإنفاق، وهو الواجب المعنوي قبل أن يأتي ذلك اليوم فتغلق بوجهه الأبواب ويواجه المصير من غير تدارك لما فات.

وهكذا نرى القرآن لا يكف عن أن يذكر الإنسان قبل فوات الاوان، وتفويته الفرصة الذهبية فيقول تعالى في آية ثالثة:

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٥٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٣١.

(٣) سورة: المؤمنون: الآيتان، ٩٩ و ١٠٠.

(٤) سورة المؤمنون: الآية، ١٠٠.

قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [١].

وهذه الآية لا تختلف عن الآيتين السابقتين من حيث الأطار العام، وهو أن الأسلوب القرآني يدعو فيها إلى تنبيه الإنسان إلى المبادرة إلى الإنفاق من قبل أن تفوت عليه فرصة العمر، ولكن الذي نلمحه من خلال هذه الآية الكريمة هو الطلب الذي يطلبه من فاتته الفرصة بعد الموت من ربه ليعود إلى الدنيا والغاية التي يريد تحقيقها من هذه العودة، وهي قوله عز وجل:

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾:

إن هذا التركيز من مثل هذا الإنسان على التصدق وبه ليكون من الصالحين يعطينا أهمية ما يكشف له في ذلك العالم، وهو يرى آثار الصدقة بما فيها الزكاة أو الإنفاق المطلق في سبيل الله لذلك يأخذه الندم على عدم القيام بها، وأنه لم يقل لأعمل العمل الفلاني أو أي عمل من الأعمال، بل صرح بالتصدق بل وأخذ يعض يديه ندماً على ما فرط في حياته من عدم الإلتفات إليه... ولكن هيهات فقد انتهى كل شيء وعادت النفس إلى ربها:

إما مطمئنة راضية.

وإما نادمة حيث لا ينفعها الندم والأمر يومئذ لله وحده.

وقد جاء أنه سأل رسول الله (ﷺ) أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح سجيج تأمل البقاء وتخاف الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا إلا، وقد كان لفلان) [٢].

---

(١) سورة المنافقون: الآية، ١٠.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة: ٩، ٤٠٥، ح١، باب استحباب المبادرة بالصدقة في الصحة قبل مرض الموت.

الصورة السادسة من التشويق:

للصدقة مزايا عديدة

ومن ثنايا الأخبار نرى كثيراً منها تشوّق المنفقين، وتذكر للصدقات والإحسان إلى المحتاجين خصائص كثيرة البعض منها تصرح بفوائد تعود إلى المنفق في الدنيا، والبعض الآخر تنفع المنفق فيما يخص آخرته:

فمن القسم الأول: ما جاء عن النبي (ﷺ) قوله:

(إستنزلوا الرزق بالصدقة)[١].

وفي حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) أن (البر، والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة من السوء)[٢].

وعنه (عليه السلام) في حديث آخر:

(وأن الله يعطي بالواحدة عشرة إلى مائة ألف فما زاد)[٣].

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): (أن الصدقة تقضي الدين وتخلّف البركة)[٤].

وعنه (عليه السلام) أيضاً: (ما أحسن عبد الصدقة في الدنيا إلاّ أحسن الله الخلافة على ولده من بعده)[٥].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٣٧٠، ح١٠، باب: تأكد استحبابها (الصدقة) مع كثرة المال وقلته مع الدين.

(٢) المصدر المتقدم: ٩، ٥٢، ح١٤، باب: الحقوق في المال سوى الزكاة.

(٣) محمد الريشهري: ٢، ١١٤٧.

(٤) الحر العاملي: المصدر السابق/ ٩، ٣٦٧، ح١، باب: تأكد استحبابها (الصدقة) مع كثرة المال وقلته مع الدين.

(٥) المصدر المتقدم: ح٣.

وعن الإمام الرضا (عليه السلام): (ظهر في بني إسرائيل قحط شديد سنين متواترة، وكان عند امرأة لقمة من خبز فوضعته في فمها لتأكله فنادى سائل: يا أمة الله الجوع، فقالت المرأة: أتصدق في مثل هذا الزمان، فأخرجتها من فيها فدفعتها إلى السائل، وكان لها ولد صغير يحتطب في الصحراء فجاء الذئب فحمله فوقعت الصيحة فعدت الأمر في أثر الذئب فبعث الله تبارك وتعالى جبرائيل فأخرج الغلام من فم الذئب فدفعه إلى أمه، فقال جبرائيل: يا أمة الله أرضيت؟ لقمة بلقمة) [١].

ويقول النبي (صلى الله عليه وآله): (داووا مرضاكم بالصدقة) [٢].

ومثل هذا جاء في كثير من الأخبار، وقد عقدت كتب الحديث أبواباً عديدة لذكر الأحاديث التي صرحت بهذه الفوائد التي يجنيها المنفق من وراء إحسانه وتصدقه.

ولماذا نستبعد ونستكثر مثل هذه الفوائد على الصدقة؟

فالقضية قضية تعويض من الله سبحانه لعبده المنفق يعوضه بهذه المزايا الدنيوية جزاء هذا التفقد الذي يصدر منه ونتيجة هذا التعاطف من بعض الناس مع الآخرين.

وأما القسم الثاني: فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن فإن صدقته تظلله) [٣].

وعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الصدقة جُنة من النار) [٤].

وقد جاء عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (ولأن أعول أهل بيت من المسلمين وأشبع جوعتهم، وأكسو عورتهم، وأكف وجوههم عن الناس أحب إليّ من أن أحج حجة، وحجة، وحجة حتى انتهى إلى عشر ومثلها ومثلها حتى

---

(١) المصدر السابق: ٩، ٣٨١، ح٤، باب: استحباب الصدقة ولو بالقليل على الغني والفقير.

(٢) المصدر السابق: ٩، ٢٩، ح٢٤، باب: تحريم منع الزكاة.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٣٦٩، ح٧، باب: تأكد استحبابها (الصدقة)...

(٤) المصدر المتقدم: ٦، ٢٥٨، ح١٧، باب: تأكد استحبابها (الصدقة)...، ط الإسلامية.

انتهى إلى سبعين) [١].

بهذه النفسية العالية يواجهنا الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام) وبهذا القلب الذي تتفجر منه الرحمة من كل جوانبه يتجه الإمام ليدخل بيتاً من بيوت المسلمين ليعول من به، وبذلك يخفف عنهم أزمات الفقر.

وطبيعي، أن يكون هذا العمل أحب إلى الإمام (عليه السلام) من سبعين حجة. والسبب في ذلك، أن الحج ينتفع به الشخص نفسه لما يحصل عليه من ثواب، وأما إعالة البيوت الفقيرة فإن النفع فيها يعود إلى الشخص نفسه بالثواب، وإلى الآخرين بإنتشالهم من براثن الشبح المرعب وهو الفقر، وبذلك يأمن المجتمع من شرور هؤلاء المحرومين، ولذلك كان هذا العمل أحب إلى الإمام (عليه السلام) من الحج المتكرر.

على أن الإمام وهو العالم بكل الخصوصيات لو لم يعلم أن في الإعالة المذكورة الثواب الذي يزيد على الثواب الذي يحصل من سبعين حجة لما كان ذاك أحب إليه من هذا.

ومن هذا المنطلق، نعلم أن الثواب الذي يحصل عليه المنفق لا يحد بحد طالما كان مصدره من وصف نفسه بالرحمن الرحيم.

الفقير هدية الله إلى الغني:

بهذا النص جاء الخبر عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) حيث قال: (الفقير هدية الله إلى الغني فإن قضى حاجته فقد قبل هدية الله، وإن لم يقض حاجته فقد رد هدية الله عز وجل) [٢].

الفقير هدية:

ولكن ممن ولمن؟

ممن، من الله.

ولمن، إلى الغني.

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٧١، ٣٨٩، ح١، باب: ثواب من عال أهل بيت من المؤمنين.

(٢) المصدر المتقدم: ٩٣، ١٧٠، ح٣، باب: كراهية ردّ السائل وفضل كراهية ردّ السائل وفضل إطعامه.

وليحاسب الغني نفسه، وهو يقف وجهاً لوجه أمام هدية الله ـ وهو هذا الفقير ـ يأتي ليطلب منه ما يسد حاجته فهل يقبل هذه الهدية أم يردها؟

ولكن رد مثل هذه الهدية بعيد عن المؤمنين الذين يقدمون كل غال ونفيس في سبيل التقرب إليه جلت عظمته.

أ ـ تشويق غير المنفقين على التوسط بهذا العمل الإنساني:

ولم يقتصر التشويق والحث على الإنفاق على الأغنياء ليقوموا بهذا العمل الإنساني بل تعداه إلى غير هؤلاء من الناس فقد جاء عن النبي (ﷺ): (من مشى بصدقة إلى محتاج كان له كأجر صاحبها من غير أن ينقص من أجره شيئ) [١].

إن النبي الأكرم يريد من وراء هذا الحديث أن يطمئن الغني بأن دخول الشخص الثالث بينه وبين الفقير لا يوجب تقليلاً للثواب والأجر.

ولماذا ينقص من أجره، والمعطي هو الله؟

ولو كان الإنسان هو المجازي لكان لمثل هذا الحساب احتمال، أما وإن الله هو الذي يرسل الهدية، وهو الذي يتقبل العطاء ويأخذ الصدقات قبل الفقير فلا مجال لمثل هذا الحساب.

وبعد كل هذا، فإن الله هو الذي يستقرض من الغني ما ينفقه فلا بعد، إذن لو كان الأجر محفوظاً لكليهما المنفق، ومن توسط في اخراج المال إلى الفقير.

أما الإمام الصادق (عليه السلام)، فقد وسع دائرة الثواب لتشمل أكثر من واحد لو تعدد الوسطاء بين الغني، والفقير حيث جاء ذلك في حديث عنه قال فيه: (لو جرى المعروف على ثمانين كفاً لأجِّروا كلهم من غير أن ينقص عن صاحبه من أجره شيئاً)[٢].

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٣، ١٧٥، ح٦، باب: ثواب من دلّ على صدقة.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٤٢٥، ح٢، بأب: استحباب المساعدة على إيصال الصدقة...

وقد يستغرب الإنسان، وهو يردد فقرات هذا الحديث في قوله: (لو جرى المعروف على ثمانين كفاً... الخ).

بهذا العدد وبهذه الكثرة، وهل توجد هكذا عملية يحدث فيها أن يصل رقم الوسطاء إلى هذا الحد.

وللجواب عن ذلك نقول:

إن الاستغراب المذكور يزول لو لاحظنا ما جاء عن النبي (ﷺ) في مثل هذا الموضوع حيث قال: (ومن تصدق بصدقة عن رجل إلى مسكين كان له مثل أجره، ولو تداولها أربعون ألف إنسان ثم وصلت إلى المسكين كان لهم أجر كامل، وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا واحسنوا لو كنتم تعلمون) [1].

وقد يوجه البعض هذا التصعيد في الرقم فيعتبره للمبالغة ليفهم بأن المنفق أجره محفوظ، ولو تعدد الوسطاء، وكانوا من الكثرة بمكان.

ولكن الذي نراه أن الحديث لا مبالغة فيه من حيث الموضوع، وهو حصول الأجر للوسطاء، وإن تعددوا.

نعم، قد يكون هذا الرقم جاء للمبالغة من حيث العد والعدد، إذ حصول مثل هذا العدد من الوسطاء قد يكون نادراً في قضية إحسان من شخص لآخر، وإلاّ فلو فرضنا أنه حصل مثل ذلك، أو أقل منه فإن الأجر يكون محفوظاً لهم، كما يقول النبي(ﷺ) (وما عند الله خير وأبقى للذين أنفقوا وأحسنوا) ولا لوم على من يستكثر مثل هذا الجزاء وهو ينظر إلى الأجر بمنظار كونه من إنسان ومخلوق ضعيف، أما لو نظرنا إلى القضية بمنظار كون المعطي هو الله الذي لا حد لعطائه وفضله وأنعامه فالمسألة تهون بل تتضاءل في رحاب لطفه كل هذه الوساوس والشكوك.

وقد جاء في فقرات من أدعية أهل البيت (عليهم السلام) قولهم: (يا من الكرم من صفة

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٤٣٦، ح٣، باب: استحباب المساعدة على إيصال الصدقة...

أفعاله والكريم من أجل أسمائه)[١].

ب ـ التأنيب على عدم الإنفاق:

ومن التشويق إلى الإنفاق ينتقل القرآن الكريم إلى الطريق الثاني في سلوكه مع الذين لا ينفقون من أموالهم في سبيل الله وبه يتوخى أن يستنهض هممهم لهذا المشروع الاجتماعي الحياتي، وهو الإحسان بالبذل.

والآيات في هذا الخصوص تبدأ بفتح حوار مع الموسرين ومناقشتهم في عدم استجابتهم لنداء الضمير، وإسعاف المعوزين وتنبيههم إلى أن ذلك لا يضر بالله وإنما تعود آثاره وخلفياته السيئة على أنفسهم، وعليهم أن يتدبروا حالهم ما دامت الفرصة مواتية وقبل أن يبعد الزورق عن الساحل، وبذلك يتلاشى الضوء الأخضر، وحينئذٍ فلا ينفع الندم.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾[٢].

حوار هادئ يتضمن مناقشة دقيقة يجريه الله مع من يشح على نفسه يمنعها من فعل الخير فلا يساعد من هو في حاجة إلى المساعدة.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

من خلال هذا المقطع تتجلى روعة الحوار في تعبير الآية بقوله (تدعون) ولم يقل ليفرض عليكم، يكلفكم، أو يأمركم، وما شاكل من هذا النوع من العبارات التي تدل على الاستعلاء، بل افتتح الله، وهو العالي الحوار معهم بهذه الدعوة المفتوحة والاسلوب الهادئ الرقيق وبدلاً من أن تكون التلبية لهذه الدعوة بالإيجاب والإسراع لكسب الخير ونيل الجزاء فإن الاستجابة منهم كانت عكسية، وإذا بالواقع العملي لتلك الدعوة يتضح من خلال الفقرة التالية:

---

(١) الشيخ الكفعمي: المصباح/ ٢٨٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

(٢) سورة محمد: الآية، ٣٨.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾:

ومن خلال بخله يتوقف عن تلبية هذه الدعوة الخيرة بجمع الشمل وبث روح التعاون بين الجميع.

ويبدأ الحساب:

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

لا على الله فإن عدم الاستجابة معناها الحرمان من الأجر والثواب في الآخرة وبذلك يخسر الصفقة وتفوت منه الفرصة.

أما الله فلا يفوته بهذا الامتناع شيء ذلك لأنه يصرح قائلاً:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ :

فلا حاجة له بالمال، وهل يحتاج إلى المال من كان مصدر العطاء إلى الناس؟

وما يأتي على لسان الآيات الكريمة عندما تصرح بأن الله يستقرض من الناس أو يطالبهم بالإنفاق، فإنما هو لإيصال النفع إليهم قبل الفقراء نظراً إلى أن ما يصل إلى المحسن يضاعف أجره، ويزيد على مقدار ما ينفعه، وهذا إشارة إلى أن معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ فبخله بخل على نفسه، وذلك أشد البخل قال مقاتل: إنما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه [1].

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾:

الفقراء إليه سبحانه في كل صغيرة، وكبيرة في الدارين الدنيا والآخرة.

في الحياة الدنيا: إلى مقوماتها.

وفي الآخرة: إلى ثوابها وجزائها.

وإذا كان الغني هو الله، وهو القادر، والرازق، والقابض، والباسط، والناس هم الفقراء إليه فعندما يطلب الغني الواقعي ـ الله ـ من الغني الصوري ـ المعطي ـ

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية: ٣٨ من سورة محمد (ﷺ).

فإن هذا الطلب لا يعود بالنفع إلى الأول بل إلى الثاني لاحتياج هذا إلى الجزاء والثواب دون الأول إذ من الواضح أن فاقد الشيء لا يعطي كما تقرره القاعدة المعروفة.

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المعنى في آية أخرى قال فيها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [1].

ومرة أخرى تؤكد هذه الآية ما أفادته الآية السابقة من غنى الله وفقر العبد إليه، ولكن في التكرار معنىً جديد تفيده الآية وقد نبهت عليه وبه تمتاز هذه الآية عن سابقتها.

إن هذه الآية أعطت صورة مميزة لغنى الله عن غنى البشر، وقد جاء ذلك بوصف الغني بأنه ﴿الْحَمِيدُ﴾.

(وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى، وإن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدلٍ لغناه عن الجزاء والشكر، وكل بدل مفروض. وإن منع لم تتوجه إليه لائمة إذ لاحق لأحد عليه، ولا يملك منه شيء) [2].

وهذا بعكس ما عليه الغني من بني الإنسان فإنه أن أعطى فإنما هو لبدل ليشكر وليمدح، وإن منع توجه عليه اللوم، إذ في أمواله حق معلوم للسائل والمحروم، فبتقصيره وعدم الإنفاق يتوجه عليه اللوم.

وفي تأنيب آخر ضمن آية كريمة أخرى عرضت لنا صورتين لشخصين منفق وبخيل، وما يجري على كل منهما:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

(١) سورة فاطر: الآية، ١٥.

(٢) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ في تفسيره الآية، الكريمة.

وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾[١].

من خلال هذه المقابلة الدقيقة التي يجريها القرآن الكريم بين شخصين:

أحدهما: اعطى واتقى.

والاخر: بخل واستغنى.

وما لكل منهما من أجر ،وما سيجري عليه.

نرى الأول: فقد وعده الله بقوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ، وسيجعل له حياة هادئة رغيدة ميسرة واليسر هنا عام لا يقتصر على شكل خاص في الحياة بل يشمل جميع مراحل حياته الجانب المالي وغيره نتيجة لاستجابته لنداء الله وقيامه بها تفرضه عليه الوظيفة الاجتماعية.

وأما الثاني: فقد وعده الله على العكس مما وعد به الأول: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، حياة معسرة ومعقدة يجد فيها أنواع العسر والضيق والكمد يتلكأ فيها:

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): (فأما من أعطى مما أتاه الله واتقى وصدق بالحسنى، أي بأن الله يعطي بالواحد عشراً إلى كثير من ذلك، وفي رواية أخرى، إلى مائة ألف فما زاد فنيسره لليسرى، قال لا يريد شيئاً من الخير إلاّ يسره الله له، وأما من بخل بما أتاه الله واستغنى وكذب بالحسنى بأن الله يعطي بالواحد عشراً إلى أكثر من ذلك، وفي رواية أخرى إلى مائة ألف فما زاد فنيسره لليسرى قال لا يريد شيئاً إلاّ يسره الله له، وما يغنى عنه ماله إذا تردى، أما والله ما تردى من حبل ولا تردى من حائط، ولا تردى في بئر، ولكن تردى في نار جهنم)[٢].

أما ترديه في نار جهنم فإن الله سيخلي بينه وبين الأعمال الموجبة للعذاب والعقوبة وحينئذٍ، فلابد من ترديه وسقوطه بالأخير في جهنم.

---

(١) سورة الليل: الآيات، ٥ ـ ١١.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسير لهذه الآيات من سورة الليل.

وأخيراً، نقف بين يدي آية ثالثة نستعرض من خلالها تأنيباً وتوبيخاً يشتمل على نوع من التصحيح لمفاهيم البعض الخاطئة حيث ينظرون إلى المال باعتباره المقياس لكرامة الإنسان وإهانته يقول تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1].

وعبر هذه الآيات يقف القرآن الكريم ليصحح الناس مقاييس الإكرام والتعظيم والإهانة والتحقير.

يتصور الإنسان أن المال منعاً وعطاءً من قبل المعطي هو مقياس الاكرام والإهانة وعلى سبيل المثال، فهو عندما يرى الله ينعم عليه من نعمة يعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الإكرام، وعندما يقتر عليه الرزق تثور ثائرته ويتجهم، ويعتبر ذلك إهانة له من الله أو من غيره.

المهم هو العطاء والمنع في نظره.

ولكن الحقيقة تأتي مشرقة تتجلى بهذا النوع من التوبيخ والتأنيب تواجه به الآيات الكريمة الإنسان ليبقى درساً على مرور الزمن.

إن القرآن يريد أن يقول لهم:

كلا ليس هذا هو المقياس الحقيقي للاكرام والإهانة كما تتصورونه، وإن ما تبنون عليه واقعكم الحياتي إنما هو محض إشتباه وخطأ.

فالإنسان عندما يرزق أو يمنع في كلتا هاتين الحالتين إنما هو مورد اختبار وامتحان.

يرزقه ليرى شكره.

---

(١) سورة الفجر: الآيات، ١٥ ـ ٢٠.

ويمنعه ليرى صبره.

ومن وراء ذلك، وفي كلتا المرحلتين يجازيه بالنعيم أو بالجحيم.

وصحيح أن مظاهر الاكرام بالإنعام والعطاء.

ولكن الإهانة ليست بتقدير الرزق والمنع، بل الإهانة يستحقها الفرد لعدم قيامه بما يفرضه عليه الواجب الاجتماعي العام اتجاه من هو ضعيف.

وتبدأ الآيات في ختام المطاف، تعرض نماذج تتجسد فيها الحاجة إلى الغير، والتي بتركها يستحق الإنسان الإهانة وعدم التقدير:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾:

عدم إكرام اليتيم نموذج من نماذج إهانة الإنسان المتمكن للطبقات الضعيفة المحرومة ذلك الإنسان الذي أعطاه الله وأنعم عليه فلم يراعِ تلك النعمة ليكفي اليتيم ـ وعلى سبيل المثال ـ من التكفف والتسول.

يقول بعض المفسرين معلقاً على هذه الفقرة من الآية (والمعنى أن الإهانة ما فعلتموه من ترك إكرام اليتيم ومنع الصدقة من الفقير لا ما توهموه من أن المقياس هو ما لو قدر الله على أحدٍ من العباد) [1].

وقد جاء عن النبي (ﷺ) قوله: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بالسبابة والوسطى) [2].

هذا هو الإكرام الذي جعل كافل اليتيم مع النبي (ﷺ) في الجنة، وطبيعي أن يكون في قباله من ترك اليتيم، ولم يرعه، ولم يعط حقه.

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية من سورة الفجر.

(٢) المصدر المتقدم: في تفسيره للآية ١٠ من سورة الضحى.

وقد حث القرآن الكريم في آيات أخرى على إطعام اليتيم وجعله من الأسباب الموجبة لاقتحام العقبة التي تقف بين الإنسان وبين وصوله إلى الجنة فقال سبحانه:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [1].

ويوم ذي مسغبة: أي يوم المجاعة فمن أطعم يتيماً من ذي قرابته ـ وليس معنى ذلك تخصيص الإطعام به، بل هو من باب الزيادة في الأجر لأنه رفق باليتيم وصلة للرحم ـ كان ذلك موجباً من موجبات اقتحام العقبة الكؤد.

وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله (ﷺ): (من أشبع جائعاً في يوم سغب أدخله الله يوم القيامة باباً من أبواب الجنة لا يدخلها إلاّ من فعل مثل ما فعله) [2].

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾:

أي لا يحث بعضكم بعضاً على هذا الأمر، وهو نموذج ثاني من نماذج الإهانة حيث يتركون المسابقة إلى إطعام المسكين المعدم يتركه من عنده، وفرة من المال يغالب آلام الجوع في يوم مسغبة قال عنه القرآن.

﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾:

هذا المسكين الذي لواه الجوع فألصق بطنه بالتراب من شدة جوعه يبقى يتحمل هذه المجاعة، وفي نفس الوقت يبيت جار له، وقد اتخم من الأكل لا يشعر بما يفرضه الواجب إزاء هذه الطبقات المنكوبة.

وهذا مقياس من مقاييس الفقر.

ونبقى نحن والفقرتين الباقيتين من هذه المقاييس.

---

(١) سورة البلد: الآيات، ١١ ـ ١٥.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾:

وقد جاء في التفسير أن أكل التراث أكلاً لّمّا بمعنى الأكل من غير تروٍ لما يأكل من خبيث وطيب، أو انه يأكل ماله ومال غيره.

وتحبون المال حباً جما شديداً، ولا تفكرون أن هذا المال سيكون وبالاً عليكم إذا جمعتموه ولم تعطوا حق الفقير منه.

ج ـ الترهيب والتخويف على عدم الإنفاق:

وهذا هو الطريق الثالث الذي يسلكه القرآن الكريم مع الذين يبخلون بالمال على غيرهم من المحتاجين إنه طريق الترهيب والتخويف من عواقب هذا البخل وهذه الشحة.

وقد عرضت الآيات هذا المعنى على نحو التدرج من إعطاء صور مخففة عن العذاب وأخرى مشددة، أو بالأحرى اتخذت طريقين إجمالي وتفصيلي، فأجملت آية وفصلت أخرى.

أما الآية المجملة فهي قوله سبحانه:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

ويبدأ الحوار بقلب المفاهيم التي بنى عليها البخلاء نظرياتهم، فالبخيل يتصور أن عدم الإنفاق وجمعه للمال إنما هو رصيد يتمتع به في كل وقت ويدخره إلى اليوم الأسود، ولكن الآية الكريمة تقلب له هذا المفهوم وتبين له الخطأ الذي بنى عليه نظريته.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾.

وتكمن نقطة الخطأ في هذا التصور الذي يوصلهم إلى النتائج العكسية فهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٨٠.

يتصورون أن جمع المال خير لهم لأنهم يكنزونه، ولا يبعثرون به هنا وهناك.

ولكن ذلك شر لهم ووبال عليهم لأنهم:

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

إن هذا المال الذي بخلوا به وشحت به نفوسهم الرذيلة سيكون طوقاً من نار تقلد به رقابهم في يوم القيامة.

ثم ما هذه الشحة بالمال، ولماذا هذا البخل، والتلكؤ في إسعاف المعوزين؟

وهذا المال مال الله، وليس لهم منه إلاّ ما يساعدهم على إدارة الحياة.

ففي البداية هو مال الله، وقد تفضل به عليهم ولله ملك السماوات والأرض يهب من ملكه لعباده ما يشاء، ويمنعه ممن يشاء.

وفي النهاية، سينتقل ما جمعه من حلال وحرام لوارثه، ولا يأخذ منه شيئاً عدا ملفوفة من القماش البسيط يكفن بها ويستر بها جسمه، وسيكون ضيفاً على (حفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر وسد فرجها التراب المتراكم) [1].

ولم تزد الآية الكريمة لذكر الجزاء على أن ما بخلو به من المال سيكون طوقاً في رقابهم لا أكثر.

ولكن هذا التخويف يتطور في الآية الثانية فيعرض صورة أشد وخزاً فتظهر معالمه من خلال الفقرات التالية في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [2].

---

(١) فقرة من كتاب لأمير المؤمنين (عليه السلام) ارسله إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف. راجع نهج البلاغة ـ قسم الرسائل، رسالة رقم (٤٥).

(٢) سورة التوبة: الآيتان، ٣٤ ـ ٣٥.

أي منظر تتحدث عنه هذه الآية الكريمة، وأي إنسان لا يتقزز، وهو يشاهد هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة يعذبون بهذه الصورة الموحشة؟

ورويداً مع الآية الكريمة لنسير معها ولنقف عند مقاطعها لنستوعب ما تحمله بين طياتها في صور الترهيب والتخويف.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والإنفاق في سبيل الله عنوان عام يشمل الإنفاق بنوعيه الإلزامي كالزكاة والكفارات والتبرعي كالصدقات.

وقد بدأت الآية بالإخبار عن جزاء هذا الكنز وعدم الإنفاق فأعطت صورة موجزة، وقد مهدت بذلك الأذهان لصورة فصلت بها نوعية العذاب.

أما الإيجاز فقد جاء من خلال قوله تعالى:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:

أما ما هو ذلك العذاب الذي وصفه القرآن بأنه ﴿أَلِيمٍ﴾؟

ويأتي الجواب التفصيلي لعرض صورة هذا النوع من العذاب الاليم.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

وهل يحمى على نفس الأموال الذهب والفضة، والتي كنزت، ولم تنفق أم أنها تجمع فتكون صفائح، ويحمى عليها كما جاء ذلك في حديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: (ما من عبد له مال، ولا يؤدي زكاته إلاّ جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنم)[1].

وعلى كل حال، ليس تحقيق ذلك بمهم، بل المهم هو معرفة المراحل التي تلي هذه العملية بعدما يحمى عليها، وقد أوضحت الآية ذلك في قوله عز وجل:

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسير لهذه الآية.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾:

وهي أهم أعضاء البدن وأبرزها تكوى بتلك الصفائح، أو بتلك الكنوز الذهب والفضة المحماة، وقد جاء عن رسول الله (ﷺ) في تكملة الحديث المتقدم: (وتكوى بها جبهته ووجهه وظهره وحتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون) [1].

وبعد ذلك تأتي الآية الكريم على ختام هذا الحوار الترهيبي فتقول:

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾:

وقد جاء في التفسير أن هذا القول يخاطبون به في حالة الكي والإحراق.

هذا ما كنزتم ومعناه، هذا جزاء ما كنزتم لأنفسكم، وكنتم تتخيلون أنه خير لكم، وإذا به شر لكم، وحيث تصل الآية إلى هذا الختام يسدل الستار على تلك الأجسام العفنة بمنظرها البشع، وصوت من وراء الغيب يودعهم قائلاً:

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾:

شروط الإنفاق:

الإسلام عندما يقوم بهذه الحملة الاعلامية الواسعة لموضوع الإنفاق من خلال الآيات والأخبار وتشويق الأفراد وحثهم على التسابق إليه لا يقصد من وراء ذلك إعطاء الفقير المال وإنعاشه مادياً وتخليصه من ويلات الفقر فقط، بل يريد ذلك ـ وفي الوقت نفسه ـ أن يجعل من هذه العملية قضية إصلاحية لكلا الطرفين المعطي والفقير.

المعطي: ليهذب نفسه ويصقلها ويروضها على فعل الخير والشعور بأن ما أعطاه الله من مال ليس له فقط، بل له وللآخرين عبر رصيده وتملكه.

فهو يريد من صاحب المال أن يبقى دائماً بجانب الآخرين يتحسس آلامهم،

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

ويعيش مشكلاتهم، كما لو كانت قد حلت بأسرته البيتية.

وأما الفقير: فليفهم بأن هذا الاهتمام به ليس لسد جوعه، وأن يملأ ما في بطنه من فراغ فقط بل ليشعره بأنه لم يترك في هذه الحياة وحيداً يعاني لوحده الأنواء والهزات التي تعاكس سفينته الصغيرة، وهو يمخر بها وسط أمواج الحياة العاتية بل هناك من يقف إلى جانبه ويمد له الحبل ليلقي به على الساحل فينجيه مما هو فيه.

إنه الإسلام يريد من الفقير أن لا ينظر إلى الغني نظر المعدم إلى المليء فقط بل نظر الصديق إلى الصديق نظر الإنسان الذي يتحسس بآلامه ويشعر بضيقه ليكون ذلك درساً له لو ضحكت له الدنيا وتحسنت حالته المادية فأصبح ملياً كالآخرين فيسير على نفس الخط الذي سار عليه يداً بيد مع المعطي، وبذلك يتحقق التكافل الاجتماعي من الطرفين كما نبهنا إلى ضرورته فيما سبق.

إن هذه النقطة الدقيقة يعير لها القرآن أهمية بالغة، وقد أكد عليها عبر آيات عديدة جاء منها قوله سبحانه:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾[1].

فالقضية ليست قضية مال يشبع بها الغني بطن الفقير بل قضية كرامة واعتبار.

قضية التحسس بآلام الآخرين.

قضية الأدوار التي مر بها الإنسان لو قدر أن كان يتيماً فقد أباه في الصغر.

أو سائلاً حيث كانت الظروف قست عليه فيما سبق فكما عطف الله عليه فهيأ له من يحنو عليه، ومن قابله بلطف وهو يملأ كفه من المال، فلابد أن يحذو نفس الطريقة التي عومل بها يوم كان يتيماً أو فقيراً.

ولو لم يكن قد مر بهاتين المرحلتين فليحسب للدنيا حسابها فيتصور اليوم الذي قد يمر به أولاده لو فقدوا كافلهم وهم صغار، أو ليضع أمامه الظروف التي قد

---

(١) سورة الضحى: الآيات، ٦ ـ ١٠.

تلجئه لأن يمثل نفس الدور الذي يقوم به الفقير حينما يلجأ إليه فيسلب منه تلك النعمة ويكون هو ضيفاً على الطرف والأبواب يسأل هذا ويتكفف من آخرين.

وإذن، فإلى جانب الإنعاش المالي من الأغنياء لابد من رعاية الجانب الآخر المتمثل بالإنعاش المعنوي ليجد اليتيم من رعايته ما يسببه ذل اليتم، وهو في كنفه، وليشعر الفقير أنه لا يمد يداً للغني، وهو فقير بل إلى أخ يسعف أخاه، كما يلجأ المريض إلى الطبيب لينقذه من براثن المرض.

وإذا كانت عملية الإنفاق درساً تهذيبياً أكثر من كونها مساعدة مالية فلابد إذن لهذا الدرس من شروط تتناسب والغاية التي حشد الشارع المقدس لها هذا القدر من الآيات، والأخبار الكريمة.

الشرط الأول ـ ابتغاء وجه الله:

الإنسان الكامل هو الذي يجعل رضى الله والتقرب إليه هو الغاية التي يقصدها من وراء كل عمل يقوم به في هذه الحياة.. ذلك لأن ما كان لله يبقى ويكتب له النمو والبركة، أما ما يقصد به غير وجه الله، ولم يكن في سبيله فيذهب جفاء.

ثم يقف الإنسان وليقارن بين من ينتظر أجره منه:

من الله القادر الرازق؟

أم من إنسان مثله عاجز؟

ومرة أخرى، نقول أن اشتراط كون الإنفاق لوجهه وابتغاء مرضاته إنما يأتي في صالح المنفق قبل الفقير لأن الله يدعوه لأن يركز علاقته معه لتكون أعماله خالصة له فيجازيه بما يستحقه على ذلك، ويضاعفه، وبذلك ينال خير الدنيا والآخرة.

ولذلك رأينا الآية الكريمة، والأخبار العديدة ـ فيما تقدم بيانه ـ تشق المعطي بأن ما ينفقه يصل ليد الله قبل الوصول إلى يد الفقير.

وهذا ـ كما قلنا ـ معنى كنائي يرمز إلى أن ما يقدمه الإنسان إلى الفقير إنما يقدم

لله بطلب مرضاته، والفقير طريق يوصله إلى هذه الغاية الرفيعة، لذلك كان الشرط الأول للإنفاق إذا أراد المعطي أن يزكو ماله وينمو ليحصل من وراء ذلك الثواب الأخروي أن يكون ما يقدمه لله، وفي سبيله لا لغرض آخر من الرياء، أو التماس الشهرة، أو تسجيل يد على الفقير ليكافئه على هذه اليد فيرد عليه جميله بخدمة يقوم بها تقديراً لعمله.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١].

والقضية تأخذ مسارها بشكل طبيعي فإن هذا النماء الذي يرجى حصوله مضاعفاً مصدره الله سبحانه، وإذا كان مصدره الله فلابد أن يكون العطاء بداعي التقرب إليه وابتغاء مرضاته.

وأما لو كان في سبيل غيره فما معنى أن يتوقع المعطي الأجر من الله، وهو يعمل لغيره؟

ويأتي هذا المعنى واضحاً في آية أخرى حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[٢].

وهذا التدرج في الآية الكريمة، هو الذي يوضح مسيرة الإنسان العطائية وكيف يجب أن يتبع هذه التعاليم القرآنية.

فما ينفقه من خير فلنفسه، وهذه هي النقطة الأولى، لأن المعطي هو الذي يحصل الثواب والأجر في الدارين، ولكن ذلك الإنفاق لابد أن يكون لابتغاء وجه الله، وهذه هي النقطة الثانية، وإلاّ فلا نحصل على النقطة الأولى، وهي الأجر والثواب.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٥.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٧٢.

وبعد ذلك ليعلم المعطي أن ما ينفق من خير على النحو الذي بينته الآية يوف إليه، وهذه هي النقطة الثالثة.

أما لو ضربنا كل ذلك عرض الجدار، وكان العطاء لغير الله فإن على المعطي أن يذهب لمن قدم له وليأخذ منه جزاءه، وقد جاء في كتب الأخبار الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) بأن المرائي في عمله ليلتمس أجره ممن عمل له.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

لقد تعرضت الآيتان إلى الحديث عن قسمين من الناس، أو فريقين ما شئت فعبر.

أحدهما: جعل الإنفاق في سبيل الجهاد، أو في سبيل الخير لأغراضه الشخصية، ولم يكن لوجه الله.

أما الآخر: فقد كان الإنفاق عنده وسيلة للوصول إلى مرضات الله والتقرب إليه.

فقالت عن القسم الأول:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾:

والغرامة ما يخسره الرجل، وليس يلزمه لأنه لا ينفق إلاّ تقية من المسلمين رياءً لا لوجه الله عز وجل وابتغاء المثوبة عنده.

وهؤلاء جزاؤهم نتيجة انفاقهم لغير وجه الله لأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين أن:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾:

وعليهم تدور الدائرة يبتلون بنفس ما كانوا يدبرونه للمسلمين من سوء، وما

(١) سورة التوبة: الآيتان، ٩٨ و ٩٩.

يعدونه لهم من عقبات.

أما القسم الثاني فقد قالت الآية الكريمة عنهم:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ :

وهؤلاء هم المؤمنون بالله وبما أخبر عنه من يوم القيامة والجزاء، وما يترتب على ذلك من غير شك وريب، وقد أعطت وصفاً دقيقاً عنهم عندما ينفقون فقالت:

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ﴾ :

ولنقف قليلاً مع الفرد من هؤلاء لنرى كيفية إنفاقه، وما يقصد من وراء هذا العطاء.

أولاً: عندما ينفق تكون غايته التقرب إلى الله عز وجل، ويجعل من عمله هذا وسيلة لنيل مرضاته فقط.

ثانياً: إنه عندما ينفق يطلب من النبي (ﷺ) أن يدعو له بالخير والبركة ليكون هذا الدعاء أيضاً وسيلة أخرى للتقرب إلى الله والركون إليه.

وهنا تواجه الآية هؤلاء المؤمنين بأن هذا النوع من الإنفاق، وبهذه الكيفية مشفوعاً بطلب الدعاء من الرسول تحقق لهم الغاية التي يقصدونها:

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ﴾ وهذه أول بشارة لهم في تحقيق ما يريدون الوصول إليه فقد اخبرتهم الآية الكريمة بأن هذه النفقة قربة لهم، وقد قبل الله قربهم.

أما البشارة الثانية، فقد جاءت مترتبة على هذه الأخبار بحصول التقرب منه سبحانه:

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾:

ورحمته هنا مطلقة لم تقيد بأنها في الدنيا فقط، أو في الآخرة فقط، بل هي شاملة لهما معاً، ولا ينقص من عطائه شيء ويدل على ذلك قوله سبحانه في آخر الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

فما يعود إلى ذنوبهم فهو غفور.

وما يعود إلى جزائهم فهو رحيم.

يشملهم بكل جزاء في الدنيا بأن يبارك في أعمالهم.

وفي الآخرة بادخالهم الجنة التي أعدها لعباده المؤمنين.

وعندما تتطور العلاقة بين العبد وربه فتخرج عن نطاق تقرب العبد إلى ربه لنيل جزاء أو لغفرانِ ذنب بل لتصل إلى مرحلة الحب والفناء في سبيل الطرف الآخر نجد القرآن الكريم يتحدث باعتزاز لينوه عن هذا النوع من المحبين ويكشف عن نفسياتهم العالية، والتي تتجه إلى خالقها اتجاه الحبيب يحن إلى لقيا حبيبه انصهروا في ذاته المقدسة فأخذوا يقدمون النفوس للتقرب لساحته المقدسة لا المال والطعام فقط فهم يحبونه ويحنون إليه.

يقول سبحانه عن هؤلاء:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[1].

والملاحظ على هذه الآيات الكريمة أنها مهدت للحديث عن هذه الشخصيات المؤمنة بأن ذكرت جزائهم في الآخرة وان مكانهم الجنة.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في آل بيت محمد (ﷺ) علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) (حيث روي عن ابن عباس أن الحسن والحسين (عليهما السلام) مرضا فعادهما رسول الله (ﷺ) في اناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على

(١) سورة الدهر: الآيات، ٥ ـ ١٢.

وُلِدِكَ فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن عافاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي (عليه السلام) صاعاً وخبزته خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال:

السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلاّ الماء فأصبحوا صائمين فلما أمسكوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه وجاءهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا اخذ علي (عليه السلام) بيد الحسن، والحسين (عليهما السلام)، ودخلوا على الرسول (صلى الله عليه وآله) فلما أبصرهم، وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال:

ما أشد ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها، وقد التصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرائيل بالسورة، وقال خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فاقرئها السورة) [1].

وبين يدي هذه الآيات الكريمة، والواقعة التي كانت السبب في نزولها نقف لنستفيد من نقاطها التالية دروساً قيّمة نكيف على ضوئها حياتنا لنسير على الخط الذي رسمه لنا هؤلاء القادة الأبطال وبيّنوا الخطوط العريضة لنوعية العلاقة التي لابد من حصولها بين الإنسان وخالقه وبين الإنسان ومجتمعه.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

هذه العلاقة الشفافة التي لا يشوبها رياء، ولا يشوه منظرها شيء من المقاصد والغايات الدنيوية كانتظار جزاء من احد، ولا خوف من آخرين.

بل كل ما في البين هو حب الله والفناء في ذاته المقدسة، وهو الغاية لهم في كل عمل يقدمون عليه في هذه الحياة.

وإطعام الطعام على حبه صورة من صور هذه العلاقة الأكيدة بين الله، وعباده المؤمنين.

---

(١) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ عند تفسيره لهذه الآية.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾:

عباد الله المؤمنين بهذه النفسية العالية يواجهون الطبقات الضعيفة المحرومة.

إنهم لا ينتظرون منهم جزاءً ولا يريدون منهم التملق والشكر على ما منحوه لهم ذلك لأن الفقير ليس طرفاً للحساب معهم بل حسابهم مع الله، والفقير إنما هو المسرح الذي يعرضون عليه صور حبهم لله سبحانه سواء كانت تلك الصورة لمسكين، أو ليتيم، أو لأسير، أو غير ذلك من القضايا والمشاكل التي تحيط بالمجتمع ككل وبالأفراد على نحو الخصوصية الفردية.

مع الحادثة التي كانت السبب في نزول الآيات:

وعندما تتأمل الحادثة التي كانت السبب في نزول هذه الآيات بما اشتملت عليه من نقاط حساسة نقول بالامكان أن نستفيد منها الدروس التالية:

١ـ فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك نذراً:

يقول العائدون لأمير المؤمنين (عليه السلام) لو نذرت على ولدك نذراً، ويمتثل الأب العطوف، والأم الحانية تتبعهما جاريتهما فينذرون لله أن عافى الحسن، والحسين صاموا لله ثلاثة أيام.

ومن هذا الامتثال تتجلى روعة التقديس لله، والحب له إذ كان بإمكان الإمام أمير المؤمنين أن يتوجه إلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله) فيطلب منه أن يرفع يديه إلى السماء ليدعوا لشفاء ولديه، ولابد من الاستجابة لأن الله لا يرد دعوة نبيه، ولا يخيبه فيها، وتنتهي المشكلة بسلام.

ولكن الإمام لم يسلك هذا الطريق لأنه كان يتحين الفرص لأن يتوجه إلى الله عبر صلاة، أو صيام، أو جهاد، أو عمل فيه خير، وما شاكل.

إن الدعاء يسد عليه هذا الطريق، ويضيع عليه هذه الفرصة، لذلك امتثل ابن أبي طالب، ونذر صوم الأيام الثلاثة، وتبعه موكب الإيمان يتمثل بنذر سيدة النساء،

وفضة جاريتها التي نشأت في هذا البيت الذي لا تسمع بين أروقته إلاّ تلاوة القرآن الكريم، أو الدعاء، والتضرع إلى الله عز وجل.

٢ـ وما معهم شيء فاستقرض علي (عليه السلام) ثلاثة أصوع من شعير:

علي (عليه السلام)، وهو صهر الرسول، وابن عمه والمقرب عنده، والذاب عن الإسلام.

وفاطمة: بنت الزعيم الروحي، والعسكري للمسلمين.

والحسنان ريحانتا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وولداه وحبه لهما أشهر من أن يتحدث عنه.

ومع كل هذه الخصوصيات نرى هذا البيت يخلو من طعام يفطرون عليه مع ما عليه هذه العائلة من قلة العدد بحيث يضطر الإمام (عليه السلام) أن يستقرض ثلاثة أصوع من شعير ليكون قوتاً لهم في إفطارهم لصوم نذره لشفاء ريحانتي رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولم يحدثنا التاريخ أن الرسول الاعظم، وهو القائد الأعلى للمسلمين والأب الروحي لهم، وولي الأمر، ومن بيده بيت مال المسلمين رعى هذا البيت من الجهة المالية بأكثر مما كان يرعى به بقية البيوت.

إن فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله): والذي كان يقبل يديها ويقول مفتخراً ليعلم الناس بمكانتها عنده (فاطمة أم أبيها)، ويسلم عليها عند خروجه من المسجد، وفي طريق عودته منه عنده كبقية نساء المسلمين من الجهة المالية.

وعلي: وهو الذي اتخذه أخاً عندما آخى بين المسلمين بعضهم مع البعض عنده من هذه الجهة كفرد من أفراد المسلمين.

والحسنان: ولطالما رأى المسلمون النبي (صلى الله عليه وآله) يطيل في سجوده لأن أحدهما جلس على ظهر جده فلا يريد أن ينحى لئلا ينزعج الطفل فيفسد عليه بسمته، وفرحته.

هذا البيت الطاهر بهذه الاسرة الكريمة نراه خالياً من ثلاثة أصوع من الشعير يقتات بها أهله.

وهكذا تتجلى الأمانة على الأموال، والترفع عن مد اليد إلى أموال المسلمين وإن كان ذلك من مثل رسول الله (ﷺ)، وهو الولي، والمشرع الذي لا يقف في وجهه شيء.

٣- وفاطمة تطحن الشعير:

ومن خلال هذا العمل تظهر عملية التكافل لتبرز بأجلى صورة عاطفية.

ففاطمة بنت النبي، وزوجة أمير المؤمنين، وأم الحسنين، وسيدة نساء العالمين تتحمل المسؤولية بنفسها، فتطحن الشعير، وتخبزه، وهي صائمة مع وجود خادمتها فضة في البيت.

هكذا فليكن العطف والحنو نحو الخدم، والمساعدين.

إن الإسلام لا يريد من الفرد أن يفرض سيطرته على الأفراد بغض النظر عن شخصية هذا الفرد فالناس أكرمهم عند الله اتقاهم، وهم كأسنان المشط لا فضل لأبيضهم على أسودهم، ولا العكس إلاّ بالتقوى.

وإنما أجاز أن يخدم بعضهم بعضاً بعنوان المساعدة، ولقاء أجور يتقاضاها من يقدم الخدمة.

أما أن يكون ذلك سبباً لتسلط أحدهم على الآخر تسلطاً يشوبه الظلم والاستعلاء، والتكبر فهذا ما لا يريده للمسلمين.

وحري بسيدات المجتمع وأمهات البيوت أن تكون هذه الحادثة هي المقياس للمعاملة مع الخدم والمساعدين، وكل الطبقات الضعيفة المحرومة.

إن على ربة البيت أن تفكر أن الخادمة إنسانة مثلها، وليس على الله بعزيز أن يمكنها لتكون أم بيت مثلها، ولكن لحكمة اقتضت هذا التفريق بينهما فتكون هي أم بيت وتلك خادمة.

إن التاريخ يحدثنا عن سيرة أهل البيت (عليهم السلام) مع خدمهم وجواريهم فيعطينا صوراً رقيقة لمعاملة حسنة تنسي الخادم، أنه يخدم في البيت.

فهذا أمير المؤمنين (عليه السلام) تقول مصادر التاريخ عنه أنه كان يشتري الثوبين له

ولغلامه قنبر، ويخيره أولاً بانتقاء أحسنهما.

وفي صورة أخرى، من صور العطف نرى الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مشهد من المشاهد المألوفة في تلك الأيام تصب الجارية الماء على يده فيقع الأبريق على رأسه أو يده فيشجه، وقبل أن يلتفت الإمام إلى الجارية تسارع الجارية والخوف قد أخذ مأخذه منها.

فتقول للإمام: والكاظمين الغيظ.

فيجيب الإمام: كظمت غيظي.

وتعقب الجارية قائلة: والعافين عن الناس.

فيقول الإمام: قد عفوت عنك.

وتطمع الجارية في المسامحة التي تشاهدها من الإمام فتقول:

(والله يحب المحسنين).

فيبتسم الإمام في وجهها قائلاً: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

صلوات الله عليكم يا أهل بيت النبوة ويا معدنَ الخُلق، والسماحة، والكرم. بهذه المعاملة الطيبة تعاملون الطبقات الفقيرة كأنهم اخوان لا خدم فلا تشعرونهم بذلة الخدمة، بل بعزة الإنسان الذي يتطوع لمساعدة أخيه.

٤ ـ فانطلق الرسول معهم فرأى فاطمة في محرابها، وقد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك:

يدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ابنته الصائمة التي أخذ الجوع منها مأخذه، وبدلاً من أن يجدها تولول، أو تثور في وجهه شاكية من انتقالها إلى مثل هذا البيت الذي لا تضم خباياه ثلاثة أصوع من شعير، بدلاً من كل هذا، وغيره يراها في محرابها تتجه إلى خالقها في خلوة حبيبه تقدسه، وتمجده وتصلي له.

لقد فقدت فاطمة (عليها السلام) الغذاء الجسمي لأنها بذلك ضربت المثل الأعلى للمواساة، ولكنها عوضت عنه بالغذاء الروحي لتسلم أمرها إلى الله الذي بذلوا كل

نفيس في سبيل التقرب إليه.

إن هذا البيت المقدس ليكون بجدارة، واستحقاق موضع عناية الله، ورعايته وتقديره ليُذهب عن أهله الرجس، ويطهرهم تطهيراً.

ولتنال هذه الأسرة الصابرة المحتسبة جزاء حبهم لله وتعلقهم به أن يقول عنهم القرآن الكريم:

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ... ﴾[1].

وبعد كل هذا الجزاء الوافي تلقوا من ربهم الوسام الروحي الذي يفتخرون به على مرور الزمن حيث قال سبحانه يختم هذه المشاهد: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[2].

وقبل أن نودع الآيات الكريمة بمشاهدها المثيرة، وبما اشتملت عليه من عرض هذه الصور الجزائية نقول: ليس ذلك مختصاً بآل البيت (عليهم السلام) ليحرم منه غيرهم لا، بل أن أهل البيت إنما نالوا ذلك لأنهم أظهر المصاديق لعباد الله المؤمنين المحبين له، والمتفانين في ذاته المقدسة، وقد جعل الله الباب مفتوحاً لكل فرد من الناس يرغب في انشاء مثل هذه العلاقة معه فهو الغفور الرحيم، وهو الذي يقبل التوبة من عباده، وهو الذي يقول عبدي أوجدت صدراً أوسع مني فشكوتني إليه؟

---

(١) سورة الدهر: الآيات، ١١ ـ ٢٢.

(٢) سورة الدهر: الآية، ٢٢.

الشرط الثاني. الاعتدال في الإنفاق:

لقد سبق أن بينا في أول البحث أن الإسلام قد أخذ بعين الاعتبار الاعتدال في الأمور كأساس للنظام الاجتماعي، وبذلك يمكن التعديل وتسير الأمور على النحو الوسط.

وقد جعل من الآية الكريمة:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[1].

مقياساً وضابطاً لتعديل الإنسان في حياته الاجتماعية، والآية الكريمة، وإن كان لسانها هو العطاء والبذل، والمنع، والشح، ولكن كما قلنا، آيات القرآن أحكام تشريعية لا تختص بمورد دون آخر، ولا بوقت دون وقت إلاّ أن تقوم القرينة على الاختصاص، ومع عدمها فالقضية تبقى عامة والحكم شامل وسار، وقد اشتملت الآية الكريمة على مقاطع ثلاث، ومن مجموعها تثبت القاعدة المذكورة.

١- ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ :

وهذا هو المقياس، والضابط للامتناع، وعدم الاقدام ومسك اليد كما لو كانت يد الإنسان مشدودة إلى عنقه فلا يقدر على البذل، والعطاء.

٢- ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾:

وهذه هي الصورة المعبرة لانبساط اليد، وعدم الادخار بحيث يبذل الإنسان فلا يبقى شيئاً له.

فلا هذا ولا ذاك لأن كلاً من هاتين الحالتين تؤدي بالإنسان إلى عدم الاعتدال، وحينئذٍ:

٣- ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾:

ملوماً في حالة الامتناع حيث تلوكه الألسن وتتحدث عن بخله الناس فيلومونه على هذه الحالة.

---

(١) سورة الاسراء: الآية، ٢٩.

ومحسوراً في حال البسط، والعطاء الكلي لأنه سينقطع عن كل احد، والناس كما يقول الشاعر:

والناس من يلق خيراً قائلون له   لك البقا ولأم الخاسر الهبل

وقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) في توضيح له لهذه الآية:

(إن أمسكت تقعد ملوماً مذموماً، وإن أسرفت بقيت منحسراً مغموماً)[١].

ومن هذا المنطلق، والسير على ضوء هذه القاعدة الكبرى كأساس لحفظ التوازن والتعديل.

تأتي الآيات الكريمة لتضع الشرط الثاني للإنفاق فتقرر ضرورة الاعتدال فيه.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٢].

والآية جاءت في معرض الحديث عن عباد الرحمن حيث قال سبحانه فيما سبق هذه الآية:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[٣].

وقال تعالى، فيما بعد هذه الآية، وهو يعدد صفات عباده الذين ارتضاهم لنفسه.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[٤].

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره الآية، ٢٩ من سورة بني إسرائيل.

(٢) سورة الفرقان: الآية، ٦٧.

(٣) سورة الفرقان: الآيات، ٦٣ ـ ٦٦.

(٤) سورة الفرقان: الآية، ٦٨.

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين تحدثت عنهم الآيات الكريمة بشيء من الاعتزاز.

سمتهم الاعتدال في كل أعمالهم مع ربهم، ومع مجتمعهم، وفي ليلهم، وفي نهارهم.

أما مع ربهم حيث رأينا الآية تقول عنهم: أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً.

يحنون إلى الليل كما تحن الطيور إلى أوكارها يقومون بين يدي الله خاشعين مصلين يسبحونه ويعظمونه سجداً وقياماً.

وربما كان منظرهم هذا وانهماكهم بالعبادة موجباً لأن يتخيل الإنسان أن هؤلاء رهباناً عباداً تركوا الدنيا وعزفت نفوسهم عن كل شيء، واتجهوا إلى الله فأين الاعتدال في أوضاعهم؟

وسرعان ما يتبدد هذا التصور عندما نراهم يطلبون من الله، وهم في مثل هذا الحال قائلين:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1].

فهم في الوقت الذي يودون ما عليهم اتجاه خالقهم يريدون منه أن يهيء لهم أزواجاً، ومن الأزواج ذرية طيبة تقر بذلك أعينهم فهم يجمعون بين الغذائين الروحي والجسدي.

وأما مع مجتمعهم فهم يتحسسون مشاكله ويعيشون آلام الطبقات الضعيفة ينفقون مما رزقهم الله ولا يظنون بالمال عليهم، ولكن بشكل معتدل يرضون به ربهم ويحفظون به على رصيدهم.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

وهذا هو الخط المعتدل في الصرف والإنفاق ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾، حفاظاً

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ٧٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية، ٦٧.

على المال ورعاية له.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾:

لأن المال الذي أعطاه الله لهم فيه حق لآخرين من الأهل والعيال والورثة فلابد من رعايتهم لئلا يتركهم من يعول بهم يتسولون.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾:

لأن في ذلك جناية على المال وكفراناً لنعمة الله على من ملكه... ذلك لأن الله رزق العبد لينتفع به، وفي الوقت نفسه لينتفع به الآخرين من أفراد المجتمع لا ليحبسه ويحجر عليه.

وإذن، فلابد من الاعتدال في الإنفاق والمحافظة على النقطة والوسط بين الحالتين، ولذلك أوصت الآية الكريمة أن يتحلى الإنسان في هذه الحياة بما فيه إنفاقه بمضمون الآية عندما تقرر قوله تعالى:

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾:

والقوام الوسط العدل، بين الإفراط والتفريط، وبين الإسراف والشح، وبين الاسراع والتباطؤ.

وبعد أن تعدد الآيات صفات هؤلاء المؤمنين المعتدلين تبشرهم بجزاء هذه الصفات، وهذا الاعتدال الطبيعي في مسيرتهم الحياتية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وكان من هؤلاء الذين ذكرت جزاءهم الآية الكريمة: المؤمنون المعتدلون في الإنفاق ـ موضوع بحثنا ـ فقد جزاهم ربهم الغرفة ـ الجنة ـ تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام تكريماً لهم خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً.

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان، ٧٥ و ٧٦.

التحذير من الوقوع في التهلكة:

وفي وصايا أخرى تتعلق بموضوع بحثنا نرى القرآن الكريم يحذر المنفقين في أن يبسطوا أيديهم في إنفاقهم بما يضر بحالهم ويؤثر على الوضع المالي للمنفقين قال عزوجل:

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (١).

أما سبيل الله: فهو كل طريق شرعه الله تعالى لعباده، ويدخل فيه الجهاد والحج، وعمارة القناطر، والمساجد، ومعاونة المساكين، والأيتام، وغير ذلك، بل وكل ما أمر الله به من أبواب الخير، والبرّ، وحينئذٍ، فيكون السبيل هو الطريق.

والآية تسير في نفس الخط الذي رسمته الآيات المتقدمة من ضرورة الاعتدال في الإنفاق وعدم الإسراف فيه لأن الاسراف وإنفاق المال يؤدي إلى التهلكة، وهي الضياع إذ أن أصل الهلاك هو الضياع والهالك الفقير بمضيعة (٢).

وإنما يكون بمضيعة لأنه كان غنياً موسراً فأصبح فقيراً معدماً، فهو بمضيعة فقدَ ما يقوّم معاشه يقول الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): لو أن رجلاً انفق ما في يده في سبيل الله ما كان أحسن، ولا وفق لقوله سبحانه:

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ (٣). السيء إزاء المنفق الذي بدّل المفاهيم الخيرة.

وعندما يحذر القرآن المنفقين عن إلقاء أنفسهم في التهلكة عند الإنفاق بغير اعتدال فإنه في نفس الوقت يوجههم إلى السير المنظم في الطريق المستقيم كحد وسط بين الإسراف والتقتير، لذلك ختمت الآيات الموضوع بقوله عز وجل:

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

وقد فسر قوله (المحسنين) بالمقتصدين.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٩٥.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٣) المصدر المتقدم: في تفسيره لهذه الآية.

(٤) سورة البقرة: الآية، ١٩٥.

والاقتصاد، هو الاعتدال في الصرف [١].

الإنفاق بدون تبذير:

ولا يقتصر الإيصاء من القرآن على الاعتدال في الإنفاق من حيث القلة والكثرة، بل هناك جهة أخرى لابد من رعايتها، وهي عدم التبذير فقد قال سبحانه:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [٢].

قال في المجمع التبذير التفريق بالاسراف، وأصله أن يفرق البذر إلاّ أنه يختص بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على سبيل الإصلاح لا يسمى تبذيراً، وإن كثر [٣].

وهذه النقطة لابد من ملاحظتها ورعايتها لأن النتائج المترتبة على التبذير أخطر من النتائج التي تترتب على الإسراف في الإنفاق، والذي عبر القرآن عنه بالوقوع بالتهلكة، أو في الآية المتقدمة أن المسرف يقعد ملوماً محسوراً.

وذلك لأن الاسراف لا يخلف إلاّ الضرر على المنفق، ومن يرثه حيث صرف المال كله وجلس معدماً محسوراً، أما المبذر فإنه لا ينفق المال في حقه.

(وعن مجاهد لو أنفق مداً في باطل كان مبذراً) [٤].

وفرق كثير بين إنفاقه كله وعلى الأخص لو كان في سبيل الله وبين إنفاقه في الباطل.

ولذا رأينا الآية الكريمة، قالت عن المبذرين أنهم:

﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾:

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٢) سورة الاسراء: الآيتان، ٢٦ و ٢٧.

(٣) لاحظ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٤) مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

لأنهم لا ينفقون مالهم في الحق، وفي طريق الخير، ولذا كانوا إخواناً للشياطين وليتبوء مقعده في النار من كان أخاً للشيطان وقريناً له.

أما المسرفون: فلم يرد فيهم مثل ذلك بل أقصى ما جاء فيه أن يدخل الضرر على نفسه فيقعد ملوماً محسوراً.

الشرط الثالث: الإنفاق من الطيب وما تحبون

الإنفاق من الطيب:

الإنفاق إحسان من المعطي إلى الفقير وتعاطف بين أفراد المجتمع والله من وراء القصد، يرعى هذه الأريحية ويبارك هذه الصفقات الخيّرة.

وإذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن يقدم المحسن أطيب ما عنده إلى الفقير.

وليس من اللائق أن يعطيه من الرديء ليتخلص منه.

الرديء الذي إذا قبضه الفقير قبضه وهو يغمض عينيه ويطرق برأسه.

والرديء الذي لو كان المعطي يريد بيعه لما اشتراه منه أحد إلاّ بأقل من ثمنه.

هذا الرديء هل يصلح أن يقدم هدية إلى الله وتقرباً لنيل مرضاته؟

وهل بهذا النوع يرجو المعطي أن تكون صفقته مع الله تجارة لن تبور؟

وهل أن هذا الرديء هو الذي يأمل المعطي أن يأخذه الله منه قبل أن يأخذه الفقير؟

أنها تساؤلات لابد للمنفق أن يجيب عليها أو يتأملها قبل أن يقدم النوع الرديء من المال إلى الفقير.

ولذلك نرى الآية الكريمة تحدد أبعاد نوعية ما يعطيه المحسن إلى المحتاجين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أن قوماً من الانصار في المدينة كانوا يأتون بالحشف من التمر فيدخلونه في تمر الصدقة الجيد فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك.

وقد تعرضت كتب التفسير لهذه الرواية بشكل من التطويل، والمهم هو أن هذه الرواية تعطينا أن الإنفاق بعدما كان تضميداً لجراح الفقير، ومواساة له في محنته، فإن الخُلق الرفيع يقتضي أن تكون هذه المواساة على النحو الأحسن لتثمر وتؤثر أثرها الطيب في نفوس الضعفاء والمحرومين ليشعر كل فرد منهم بالعطف والمشاركة لهم في الطيب من العيش لا للتخلص من هذا الذي قدم لهم.

إن شعور الفقير بأن ما دفعه إليه المحسن من النوع الرديء، إنما كان للتخلص من رداءته ليترك في نفسه الأثر السيئ إزاء المنفق الذي بدل المفاهيم الخيّرة.

على أنه كما قلنا، في البين طرف ثالث دخل في هذه الصفقة وهو (الله سبحانه) وهو يصرح بأنه عز وجل غني عن صدقاتهم وإنما يريد الخير لهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾:

فهو غني عما تقدموه للفقير تقرباً له وحصولاً لمرضاته، ولكنه ـ في نفس الوقت ـ حميد يشكركم على عطائكم لو أعطيتم.

ولكن هذا الشكر إنما يكون لو أعطيتم، ولو كان ما قدمتموه لوجهه من طيب ما تقدموه.

ثم يعقب القرآن الكريم لينبّه المنفقين بأن هذه الحالة التي تساوركم في دفع الرديء إنما تنشأ من حرصكم على المال وحبكم في المحافظة عليه، ولذلك تأبى نفوسكم أن تقدموا الشيء الجيد لئلا تذهب خيار أموالكم فتصبحوا معدمين فقراء،

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٧.

وهذه وساوس شيطانية لا أساس لها فإن من قدّم لله فعليه جزاؤه، ومن كان جزاؤه على الله فكيف يخشى الفقر؟

وتدلل الآيات على ذلك بإجراء مقارنة بين وعدين أحدهما، صادر من الشيطان. والآخر، من الله سبحانه، وكم بين الوعدين من الفرق.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾:

الشيطان يوحي بأن إعطاء المال الجيد، أو مطلق بركم وإنفاقكم في سبيل الله يؤدي بكم بالنتيجة إلى الفقر.

﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾:

أي المعاصي والرذائل، وقيل بالإنفاق من الرديء وسماه فحشاء لأن فيه معصية لله حيث أنه لم يخرج مما عينه الله له فإن الغني إذا ترك الإنفاق على ذوي الحاجات من أقاربه وجيرانه، وبقية أفراد المجتمع أدى ذلك إلى التقاطع، وكل تركٍ لحقوق الله فهو من الفحشاء.

وبذلك تنتهي وعود الشيطان ومغرياته.

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾:

وعدان من الشيطان سبقا.

وها وعدان من الله تقررهما الآية الكريمة لمن ينفق عن طيب نفس ويخرج من جيد ماله لينعش به ذوي الدخل المحدود.

أحدهما: أخروي.

والآخر: دنيوي.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٨.

أما الأخروي: فهو الوعد بالمغفرة للذنوب، وبذلك ينال المنفق الجنة.

وأما الدنيوي: فهو الفضل أي ويعدكم أن يخلف عليكم ما أنفقتموه ويتفضل عليكم بالزيادة.

وقد سبق لنا، أن نقلنا الآيات الكريمة التي وعد الله فيها المنفقين بمضاعفة الرزق، وأن ما ينفقونه بنسبة كل واحد في قبالة سبعمائة.

وقد جاء عن ابن عباس أنه قال: إثنان من الله، وإثنان من الشيطان، فاللذان من الله المغفرة على المعاصي، والفضل في الرزق، واللذان من الشيطان الوعد بالفقر، والأمر بالفحشاء [(١)].

ولنقارن بين الوعدين:

الله يعد بالفضل والزيادة.

والشيطان يعد بالفقر.

والله يعد بالمغفرة رحمة منه.

والشيطان يأمر بالفحشاء والرذيلة.

وليقف الإنسان ويخيّر نفسه بأي من هذين الوعدين يأخذ؟

الوعد المشرق من الله الذي يفتح أمام المنفق النوافذ العريضة ليطل منها على مغفرة الله وآيات فضله.

والوعد القاتم الكئيب من الشيطان الذي يغلق في وجه المنفق كل الأبواب التي ترجوا أن يدخل منها إلى ساحة الله المقدسة لينعم بآلائه وألطافه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

وتختم الآية الكريمة المقارنة بين الوعدين: وعد الله ووعد الشيطان بهذا العتاب الرقيق، وأن الله واسع، فلماذا الخوف من الفقر وتصديق الشيطان بما يخوفهم به، والله

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

واسع في عطيته، وأنه إذا وعد وفى؟ وحتى إذا لم يعد فهو الرازق، وهو الرحيم، وهو الودود، وإذا صدر منه الوعد فإنما ليطمئن الإنسان بأنه سيلقى الجزاء، بأحسن وبأكثر مما يتصوره المنفق فلا حاجة لوعد الله بعد أن علم الإنسان أن مصدر العطاء هو الله سبحانه، وأن لطفه ورحمته لا تختص بفئة دون فئة، وقد جاء في الأخبار بأن رحمة الله يطمع فيها يوم القيامة حتى إبليس، وهو أبغض الخلق إلى الله عز وجل.

وأخيراً، فإنه مضافاً إلى سعة عطاء الله فإنه:

﴿عَلِيمٌ﴾:

عليكم بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية، ومن ذلك ما يدفعه الإنسان ويقدمه في سبيله وطلباً لجلب مرضاته، أو للرياء والسمعة والتقرب إلى الناس.

وعليم بمن يدفع الرديء عن قلة يد وعدم وجود أحسن منه، أو للتخلص منه مع وجود الأحسن منه.

الإنفاق مما تحبون:

ومن الإنفاق من الطيب ينتقل القرآن الكريم إلى توجيه جديد يوجه به المنفقين إلى مرحلة يربط فيها بين المنفقين والمحتاجين بشكل آكد مما سبق حيث يجعل من الآيتين شخصاً واحداً وعلى نحو يفكر الغني بالفقير كما لو يفكر بنفسه فيختار له ما يختاره لها ويجنبه مما لا يرغب فيه يقول سبحانه:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[١].

البر هو فعل الخير، أو التوسع في فعل الخير، ومن خلال هذه الآية تتجلى روعة التوجيه حيث أغلقت في وجه المنفق طريق الوصول لينهل منها إلاّ إذا كان شعوره بحاجة أخيه المسلم كشعوره بنفسه، وما يعاف منه لا يريده له، وما رغب فيه يريده تماماً كما يقول الحديث: (أحب لأخيك المسلم ما تحبه لنفسك)[٢].

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٩٢.

(٢) الشيخ جمال الدين الحسن بن زين الدين الشهيد (صاحب المعالم): منتقى الجمان/ ٢، مؤسسة النشر الإسلامي.

وهذه هي الوحدة التي تجعل من أفراد المجتمع صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وبهذا النوع من الانصهار بين الطرفين المنفق والفقير وتسود روح التعاون بينهما فينظر الغني إلى الفقير نظرة الأخ إلى أخيه فيحب له ما يحبه لنفسه، وكذلك الفقير ينظر إلى الغني نظر المنعم إليه فيتربص الفرصة ليرد الجميل إليه.

(وعن أبي الطفيل قال اشترى علي (عليه السلام) ثوباً فأعجبه فتصدق به، وقال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) من آثر على نفسه آثره يوم القيامة بالجنة، ومن أحب شيئاً فجعله لله قال تعالى يوم القيامة: قد كان العباد يكافئون فيما بينهم بالمعروف، وأنا أكافؤك اليوم بالجنة) [١].

وقد تصدق الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) بالسكر على الفقير فقيل له: (أتتصدق بالسكر؟ قال: نعم إنه ليس أحب إلي منه، وأنا احب أن أتصدق بأحب الأشياء إلي) [٢].

الشرط الرابع ـ أن لا يتبع العطاء بالمن والأذى:

وفي نطاق هذا الشرط نرى القرآن الكريم ذكر آيات ثلاثة متعاقبة، وقد بيّن فيها أن الإنفاق إنما يكون مرغوباً فيه ومرضياً له، سبحانه لو لم يصاحبه منٌّ على الفقير، ولا أذى يلحقه من المعطي.

وتبدأ الآيات بقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٣].

---

(١) الميرزا النوري: مستدرك الوسائل/ ٧، ٢٥٠، ح٤، باب: استحباب تصدق الإنسان باحب الأشياء...

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٩، ٤٧١، ح٢، باب: استحباب تصدق الإنسان باحب الأشياء...

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٦٢.

ويقول جلت عظمته:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[(١)].

ويختم القرآن آياته في خصوص هذا الشرط بقوله عز وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[(٢)].

وعندما نلاحظ هذه الآيات الثلاث نراها تشترك في بيان معنى واحد اتفقت عليه بينما انفردت كل آية ببيان معنى اختصت به.

أما ما أتفقت عليه الآيات فإنها بمجموعها بينت أن الإنفاق إنما يكون مرضياً لله تعالى ويتقبله ويضاعف عليه لو كان المنفق يقدم عطاءه غير مقرون بالمن والأذى.

أما المن بالعطاء: فهو توبيخ المعطى له أو تحميله بما يستلزم المشقة في قبال ما ينفقه.

إن القرآن الكريم بهذا الأسلوب من العطاء يريد من المنفق أن يكون:

اليد الحانية على الفقير، والابتسامة المشرقة التي تزيل ما بقلب هذا المحروم من الكآبة والحزن.

والوجه المشرق، وهو يناول سائله ما تجود به نفسه من خير.

فبهذه الصفات، وبهذا الخلق الرفيع يكون الإنفاق مثمراً، ومؤثراً أثره الحسن في نفس السائل.

ولكن لو انقلب الأمر وتبدلت هذه الابتسامة إلى عبوس وتقطيب، أو تطور الأمر فأخذ المعطي يوبخ السائل ويزجره فإن هذا العطاء لا يحقق أثره المطلوب ولذلك لا يكون مرغوباً فيه.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٣.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٦٤.

ومعاً لنستعرض الآيات الكريمة، وما جاء بمضمونها من الأخبار.

الآية الأولى: وفيها يقول سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

لقد حددت الآية الكريمة الإنفاق الذي يثمر الثمر الطيب فينال به المنفق جزاءه في الدارين الدنيوي والأخروي، فرسمت أبعاده وقيدته بأن لا يكون مشفوعاً بصورة تترك في النفس أثرها السيء، وبذلك ينقلب الإحسان إلى الإساءة، والخير إلى الشر، بل لابد أن يكون الإنفاق رفعاً لمعنويات السائل أو المحتاج وجبراً لخاطره المكسور ليفهم أن العملية إنما هي تعاون بين أفراد الأسرة الواحدة لا أنها اعتداد وافتخار وعلو واستكبار للبعض على الآخرين.

وقد ضربت هذه الآية مثلين للصور التي لا يرغب الإسلام للإنفاق والعطاء.

الأول: عدم المن.

الثاني: عدم الأذى.

وقد بين بعض اللغويين المراد من المن هنا، والذي قيل عنه بأنه عدم الاعتداد من المعطي فمثل له:

بأنه يجابه المنفق المحتاج بحالة تدل على تكبره واستعلائه وتفاخره بما يقدمه، أو يوجه إليه كلمات خشنة تحطم معنوياته، فيقول له ـ وعلى سبيل المثال ـ ألم أعطك؟ ألم أحسن إليك؟

أو قوله: لولا عطيتي لكانت حالك كذا، ومن هذا القبيل بقية الألفاظ التي تجرح عواطفه.

أما عدم الأذى: فمثلوا له بأن يقول المنفق للفقير أراحني الله منك أو من ابتلائي بك؟ أو ليتني لم أتعرف عليك، أو يتعدى مرحلة التوبيخ بالكلام إلى مرحلة العمل

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٢.

فيطلب من السائل أعمالاً تسبب له التعب والمشقة لا هذا ولا ذاك بل عطاء مشفوع بلطف ورحمة ليشعر المحتاج بأنه لجأ إلى من يساعده ويقف إلى جانبه في محنته.

يقول النبي (ﷺ) كما عن أبي ذر الغفاري: (ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل المنافق الذي لا يعطي شيئاً إلاّ بمنته والمسبل إزاره والمنفق سلعته باليمين الفاجرة)[١].

وفي خبر آخر عنه (ﷺ): (أربعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة عاق، ومنان، ومكذب بالقدر، ومدمن خمر) [٢].

وفي حديث ثالث، نرى النقمة تشتد على المنان فيقول النبي محمد (ﷺ) فيه: (حرمت الجنة على المنان) [٣] أو (لا يدخل الجنة منان بالفعال للخير إذا عمله)[٤].

ومن مجموع هذه الأخبار وغيرها نستفيد أن هذا الصنف من الناس نتيجة منّه بعطائه مبغوض لله سبحانه، وغير مرغوب فيه، وفي عطيته ويكفيه ذلاً أن الله لا ينظر إليه يوم القيامة أو لا يكلمه، وأخيراً لا يدخله الجنة.

بهذا البيان تشترك الآية الكريمة مع الآيتين الأخريين، ولكنها تنفرد عنهما بأنها تضمنت بيان أن الذين ينفقون أموالهم خالصة طيبة بدون منٍ ولا أذى:

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

ولكن الآية لم تحدد الأجر بأنه في الدنيا أو الآخرة، بل كانت مطلقة من هذه الجهة ليشمل لطف الله المنفق فيمنحه الأجرين معاً، وأضافت بعد ذلك بأنها تبشرهم بقوله تعالى:

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

---

(١) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٤١.

(٢) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٤٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٦/ ٣١٦.

(٤) بحار الأنوار: ٩٦/ ١٤١.

ولماذا يحزنون؟

وقد وعدهم الله بأنهم سيجازون على ما صنعوا بما لم يحدده الله لهم، ومن أكرم من الله؟

أما الآية الثانية: فقد قال سبحانه فيها:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [(١)].

وحيث كان الغرض من عملية الإنفاق هو النفع المادي والمعنوي للمحتاجين.

المادي: بإيصال المال أو الأعيان غير المال إليه.

والمعنوي: بإعطائه ما يشعره بالعطف واللطف والمواساة في محنته بما يحفظ له كرامته...

نرى هذه الآية الثانية تعقب هذا النوع من الناس الذي يتبعون ما أنفقوه بالمنّ والأذى بهذا العتاب الرقيق فتوجههم إلى شكل آخر من أشكال اللطف والأدب مع هؤلاء المحرومين إذا هم لم يرغبوا بالعطاء من غير منٍ ولا أذىً.

ولماذا الأذى إلى الفقير؟

والمال متاع هذه الحياة الدنيا، وليس له منه إلاّ ما يشبع بطنه، وإذا أراد أن لا يعطي فليرد السائل بأدب وحشمة وبالكلمة الطيبة تحفظ بها كرامة السائل وهيبة المعطي ـ وعلى سبيل المثال ـ ليقول له وهو يرده.

وسع الله عليك من رزقه، أو كان الله في عونك، وما شاكل من هذا النوع من الكلام الذي يفهم به السائل بأنه لا يرغب في العطاء، ولكن بشكل محتشم ومتزن وهادئ، وهذا هو المراد من القول الميسور في آية أخرى جاءت تؤكد هذا المعنى في قوله:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [(٢)].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٣.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٢٨.

وقد روي أن النبي (ﷺ) بعد نزول هذه الآية، ولم يكن عنده ما يعطي، أو كان عنده، ولكن كان يقصد تعليم الآخرين لأدب الرد يقول للسائل: (رزقنا الله وإياك من فضله) [1].

ومع الآية في عرضها التفصيلي فيما انفردت به من بيان ما يقوم به المنفق لو لم يرغب في الإنفاق ورد السائل بأدب.

تقول الآية الكريمة:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ :

والقول المعروف أدب رفيع تتوخى الآية أن تتجلى به المعطي ليُحسم الموقف بين الطرفين، ولئلا يتطور إلى نزاع وخشونة، وعلى فرض حصول مثل ذلك فإن الآية الكريمة تتجه إلى المعطي لتطلب منه أن يحسم هذا النزاع فيما لو صدر من السائل ما لا يرضى به من الإلحاح، أو التطاول في الكلام، أو المطالبة في غير الوقت المناسب مما يعتبر جرحاً لعواطف المنفق وتحدياً له فإن الآية تريد منه أن يتجلى بالصبر، ويغض عن كل ذلك، ولا يعقب عليه، وهذا هو المراد من الفقرة الثانية، في قوله تعالى:

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ :

وتكون حصيلة الآية الكريمة عند عدم العطاء بتوجيه المعطي إلى القول:

بالمعروف لو لم يصدر من السائل تعقيب.

أو المغفرة: فيما لو صدر منه ما يسيء إلى المنفق.

وبتعبير أدق فإن الآية الكريمة تريد من المنفق أن يواجه السائل بأحد الطرق الآتية:

١ـ العطاء، وما يصاحبه من بشاشة وإنطلاق.

٢ـ القول المعروف لو لم يحصل العطاء.

---

(١) الميرزا النوري: مستدرك الوسائل/ ١٥، ٣٦٩، ح٢، باب: حد الإسراف والتقتير.

٣ـ ضبط الأعصاب والإغضاء عن فعل السائل لو صدر منه ما يسيء إليه نتيجة عدم اعطائه.

ذلك لأن هذا السائل ربما كان صادقاً في مسألته، وقد ضاقت الدنيا فلم يجد ملجأً يفر إليه غير التوجه إلى هذا المنفق، وإذا كان هذا حال السائل فليتحمل المسؤول منه، وليرده بأدب، أو ليغفر إساءته له وهذا خير من الصدقة مع المن والأذى فإن الأسلوب الجاف يزيد في تعقيد هذا المحروم وتهييج كوامن آلامه.

أما لماذا يكون هذا النحو من الأسلوب الهادئ سواءً بالقول المعروف أو المغفرة خير من هذه الصدقة مع المن والأذى، فذلك لأن صاحب هذه الصدقة بهذا النحو من الأذى والمنّ لا يحصل على عين ماله في دنياه ولا على ثوابه في عقباه، والقول المعروف والمغفرة عند الإساءة طاعتان يستحق الثواب عليهما.

وأما الفقرة الثالثة من الآية فقد قالت:

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾:

وقبل أن تختم الآية هذا العتاب تهدد المنفقين من طرف خفي بأن الله غني عن صدقة المنفق إذا شُفعت بالمنّ والاذى فإن الله لا يريد من المنفق هذا النوع من المعروف الضحل، لأنه ليس بعاجز أن ينفع الفقير بما يغنيه ـ كما سبق أن أوضحنا ذلك ـ ولكن المصالح تقتضي هذا النوع من التوزيع في الأرزاق فهو غني عن صدقات المنفقين. ولكنه، في الوقت نفسه يعطيهم من فضله، ويأمرهم بالعطاء فيتخلفون عن ذلك أو يستجيبون، ولكن بشكل من التأفف والضجر والمنّ على الفقير أو إيصال الأذى إليه.

كل ذلك، يحلم سبحانه عنه، ولا يعاجل هؤلاء المنفقين بالتعقيب، بل يترك ذلك ليوم تشخص فيه الأبصار.

ولكن إذا أخفقت هذه التوجيهات فلم تؤثر في سلوكية بعض المنفقين المتعنتين من تعديل مسيرة الإنفاق بجعلها على النحو المهذب كما شرحته الآيتان الأولى

والثانية، فإن القرآن الكريم يختم البحث بمكاشفة هؤلاء المعقدين ليواجههم بالحقيقة التالية من خلال قوله عز وجل.

في الآية الثالثة: يقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [1].

وهكذا يعلن القرآن الكريم ليقول بالحرف الواحد.

﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾:

والقصد من البطلان هنا، هو أن مثل هذا العمل لا فائدة فيه، لأن المنفق لا يستحق عليه ثواباً.

ويفهم هذا من تشبيه الآية الكريمة عمل المنفق الذي يتبع انفاقه بالمنِّ والأذى بأحد هذين العملين.

الأول: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ﴾.

الثاني: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ ﴾.

ومع التمثيل الأول: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾.

وحينئذٍ يكون حال المنفق حال من يرائي في عمله ليوجه الأنظار إليه ليحمد على ما يفعل، وبذلك يحبط عمله.

وقد جاء عن النبي (ﷺ) أنه قال: (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يسمع أهل الجمع أين الذين كانوا يعبدون الناس؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإني لا أقبل عملاً خالطه شيء من الدنيا وأهلها) [2].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦٤.

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال/ ٣، ٤٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: وهذه صفة أخرى للمشبه به أي المنفق الذي ينفق بالمنّ والأذى عمله كعمل المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر... إذ لو كان المرائي يؤمن بالله واليوم الآخر لقصد في فعله وجه الله ولاختار الطرق التي بيّنها سبحانه وأراد من عباده السير عليها.

وقد جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه (قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام، أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته، ثم ضرب مثلاً فقال: كالذي ينفق ماله رئاء الناس ... والله لا يهدي القوم الكافرين)[1].

وقد أكدت الآية الكريمة على تعرية عمل المنفق الذي لا يرد الفقير، ولكن يشفع عمله بالمنّ والأذى بتشبيه ذلك العمل بمنظر مألوف للناس في نطاق مشاهدهم العادية فقال تعالى:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾.

وصفوان: هو الحجر الأملس:

والوابل: هو المطر العظيم.

والصلد: المتجمد.

وقد شبه الله سبحانه عمل المنفق المرائي، وهو يرجو الثواب من عمله بهذا المشهد الذي لا يثمر شيئاً، وهو مشهد الحجر الصلد الذي يكون عليه مقدار من التراب فينزل عليه المطر فيزيل ذلك التراب ويبقى الحجر الصلد لا يثمر شيئاً لعدم وجود تراب ليزرع فيه.

وبالأخير لا ثمر في هذين المشهدين.

عمل المرائي المنان.

وعمل من يزرع في مثل هذا الحجر الصلد.

كله هواء في شبك كما يقول المثل المعروف.

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٣، ١٤٢، ح٨.

صفات ممدوحة في المنفق

١: صدقة السر:

من شروط الإنفاق: ينتقل القرآن الكريم إلى أدب العطاء، فنجد فيما يخص الموضوع آية واحدة توجه المنفق إلى كيفية العطاء بما يضمن له ثواباً أكثر فيما لو كانت عطيته على النحو الذي بينته الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

وطبيعي أن يكون العطاء إلى المحتاج سراً أفضل من الاعلان به... وذلك لأن صدقة السر تحقق أهدافاً ثلاثة بينما صدقة العلن لا تحقق إلاّ هدفاً واحداً.

أما الأهداف التي تحققها صدقة السر فهي:

أولاً: عطاء على المنفق إلى الفقير وايصال خيرٍ له، وبه يسدُّ حاجته.

ثانياً: إن صدقة السر بعيدة عن الرياء إذ الرياء إنما يتحقق مع الإظهار والإعلان بالشيء، أما مع الإخفاء فلا معنى للرياء لعدم إطلاع أحد على العطاء غير الفقير، وبذلك تسلم عملية الإنفاق من الشوائب غير المحبوبة.

ثالثاً: إن صدقة السر تحفظ للفقير كرامته، ولا تجرح شعوره إذ الكثير من الناس لا يقبلون أن تهدر كرامتهم، ولو كان ذلك من طريق الإحسان إليهم، فلا يريدون أن يعرف عنهم أنهم بحاجة وعَوَز، ولذلك قالت عنهم الآية الكريمة:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧١.

﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ (١).

كل هذه المميزات لا نجدها متوفرة في صدقة العلن لاحتمال أن يصاحبها الرياء وفي الوقت نفسه، قد يتضايق منها الفقير فيما لو كان غير راغبٍ بأن يفهم الناس عنه بأنه محتاج وفقير كما قلنا.

هذا هو الفارق بين الصدقتين: صدقةِ السر، وصدقةِ العلن.

مضافاً، إلى أنه قد وردت أخبار كثيرة في فضل صدقة السر، وأنها تحقق أهدافاً عديدة:

منها: أنها تطفئ غضب الرب، وتطفئ الخطيئة، وتنفي الفقر، وتزيد في العمر، وتدفع سبعين ميتة سوء، وتدفع سبعين باباً من البلاء.

وقد جاء عن النبي (ﷺ) قوله: (سبعة يظلّهم الله يوم لا ظل إلاّ ظله ـ إلى أن قال ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لم تعلم شماله ما يتصدق بيمينه) (٢).

هذا الرجل بهذه النفسية الطيبة يخفي عطاءه حتى لا يعلم به أحد، وهو واحد من السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة، وعطاؤه يطفئ غضب الرب ـ وفي الوقت نفسه ـ محبوب لله.

هذا الرجل لماذا نال هذه الدرجات؟

ويأتي الجواب واضحاً، بأنه حصل على كل ذلك لأنه ستر أخاه المؤمن، وحفظ له كرامته، ولم يجرح عواطفه.

ومن الواضح، أن الله يحب الساترين، ويمنحهم الثواب ويجزل لهم العطاء.

وقد سار أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على هذا النهج، فكانوا يخفون عطائهم فإذا ضرب الليل بأجنحته، ولفّ المدينة بظلامه الدامس قاموا ليتفقدوا البؤساء،

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٣.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٥، ١٩٩، ح٤، باب: استحباب الاختلاف إلى المسجد...

والمحتاجين يطرقون أبواب الفقراء ليوصلوا لهم الطعام، والكساء، والنقود.

وسنتطرق إلى هذا الموضوع بشكل أوسع في فصل قادم.

وقد اختلفوا في الصدقة التي يكون اخفاؤها أفضل فهل هي الصدقة الواجبة أم المستحبة؟

فقيل: صدقة التطوع إخفاؤها أفضل لأن إخفاءها يبعدها عن الرياء، وأما المفروضة، فلا يدخلها الرياء، بل على العكس لو أخفاها الإنسان لحقته تهمة منع الحق المفروض فإظهارها أفضل من التستر بها.

يقول الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) موضحاً هذا المعنى: (الزكاة المفروضة تخرج علانية، وتدفع علانية، وغير الزكاة إن دفعه سراً أفضل، وقيل الإخفاء في كل صدقة من زكاة، وغيرها أفضل) [1].

أما إذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإن الآية الكريمة مطلقة لا تفصل بين الصدقتين الواجبة والتطوعية بل تقول:

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

ونظراً لإطلاق هذه الآية والتفصيلات في الأخبار كما عرفت فقد خرج الفقهاء بالنتيجة التالية:

وهي أن مطلق الصدقة زكاة كانت أو غيرها من الصدقات المستحبة إخفاؤها أفضل من إعلانها لما بيّناه من وجود الفائدة في الإخفاء.

ولكن إذا كان الإخفاء موجباً لاتهام الإنسان بعدم إخراج الزكاة، أو برميه بالبخل والشح، أو كان المنفق يقصد من وراء إظهار الصدقة تشجيع الآخرين، وتعويدهم على فعل الخير وإنعاش هؤلاء الضعفاء المحرومين ففي مثل هذه الموارد لابد من الإعلان للأسباب المذكورة، أما إذا لم يحصل شيء من ذلك فإن الإخفاء

---

(١) لاحظ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

أفضل نظراً لما يحققه من الأهداف السامية كما بينا ذلك.

٢.الإيثار على النفس:

من الصفات الممدوحة التي يرغب الله أن يتحلى بها المنفق هي ما ذكرته الآية الكريمة في قوله سبحانه:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

نفوس خيّرة مؤمنة تتوجه إلى خالقها في كل صغيرة، وكبيرة لتكسب رضاه، ولتوطد العلاقة معه.

نفوس آمنت بربها فتسابقت إلى العمل بما يرضيه فقالت عنهم الآية الكريمة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والإيثار: هو احتساب الشيء، وتقديمه على ما سواه في الوقت الذي تكون حالة مثل هؤلاء الأشخاص كما عبرت عنهم الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

والخصاصة: هي الحاجة، والإملاق فإذا كان الإيثار على النفس مع الحاجة الشديدة الملحة فإن ذلك غاية ما يتصور في تحلي الواحد من هؤلاء بالخلق الرفيع.

ومن هم هؤلاء الذين ذكرهم القرآن، وأهاب بنفوسهم الرفيعة؟

يقول المفسرون، هؤلاء قوم أكلهم الفقر، فكانوا بأشد الحاجة إلى المال، ولكنهم مع ذلك حفظوا أنفسهم، وقدّموا ما عندهم من المال إلى السائل، والمسكين يبتغون بذلك رضا الله، والتقرب إليه، فوصفهم سبحانه بأنهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فقال في نهاية الآية المذكورة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ . وهم الفائزون بما وعدهم به من الثواب الجزيل.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية (أن رجلاً جاء إلى النبي (ﷺ) فقال:

---

(١) سورة الحشر: الآية، ٩.

أطعمني فإني جائع، فبعث النبي إلى أهله فلم يكن عندهم شيء، فقال: من يضيفه هذه الليلة؟ فأضافه رجل من الأنصار، وأتى به إلى منزله ولم يكن عنده شيء إلاّ قوت صبية له، فأتوا بذلك إليه، وأطفأوا السراج، وقامت المرأة إلى الصبية، فعللتهم حتى ناموا، وجعلا يمضغان لسانيهما لضيف رسول الله (ﷺ) فظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف، وباتا طاويين فلما أصبحا غدوا إلى رسول الله فنظر إليهم، وتبسم، وتلا عليهم هذه الآية.

وقد عقب الشيخ الطبرسي في تفسيره على هذه الآية بقوله: (وأما الذي رويناه بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن الذي أضافه وأنام الصبية وأطفأ السراج هو علي بن أبي طالب وفاطمة (عليهما السلام)) [1].

لقد أضاف الإيثار المذكور ثواباً آخر إلى ثواب الإنفاق نفسه، وبذلك حصل المنفق الذي آثر غيره عليه على ثوابين:

ثوابُ على عطائه وإنفاقه لوجه الله سبحانه.

وثواب على إيثاره غيره على نفسه.

الذين يسخرون من المتصدقين:

كما توجد نفوس مؤمنة خيرة تتجه إلى خالقها للتقرب إليه، كذلك نفوس شريرة همّها النفاق، والبعد عن ساحة الله، ورضوانه.

وهذا القسم الثاني: عندما نلاحظ أعمالهم في المجتمع نجدهم لا هم لهم إلاّ العبث، والشغب، وإيذاء المنفقين بالسخرية منهم على إنفاقهم وهؤلاء هم المنافقون الذين يعيبون على المنفقين إنفاقهم، ويطعنون في عملهم ويؤولون ذلك على حسب ما تشتهيه نفوسهم القذرة.

في هؤلاء يقول سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ الموضع السابق.

يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١].

وفي سبب نزول هذه الآية (قيل أن عبد الرحمن بن عوف جاء إلى النبي (ﷺ) بصرةٍ من دراهم تملأ الكف، وأتاه عتبة بن زيد الحارثي بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله: عملت في النخل بصاعين فصاعٌ تركته لأهلي، وصاع أقرضته ربي. فقال: معتب بن قشير، وعبد الله بن بنثل إن عبد الرحمن بن عوف رجل يحب الرياء، ويبتغي الذكر بذلك، وإن الله غني عن الصاع من التمر، فعابوا المكثر بالرياء، والمقل بالإملاق) [٢].

إن الحقد الدفين يظهر من خلال هذا العيب فلا المكثر في الصدقة مقبول في نظرهم، ولا المقل بل هم في دوامة من السخرية لمن تطوع بالصدقة... لذلك رد الله سخريتهم بقوله سبحانه: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وطبيعي أن سخرية الله هي: أنه كتب لهم نار جهنم خالدين فيها ولهم عذاب أليم.

٣. عدم رد السائل:

هذه صفة ممدوحة من صفات المنفق، وهي: قبول السائل وعدم رده.

يقول الخبر عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) (إن رسول الله (ﷺ) ما منع سائلاً قط إن كان عنده أعطى وإلاّ قال: يأتي الله به) [٣].

وجاء فيما ناجى الله به موسى بن عمران (عليه السلام) إنه قال: (يا موسى أكرم السائل ببذل يسير أو بردٍ جميل) [٤].

كل ذلك لئلا يخرج السائل كسير القلب مردوداً من قبل المعطي.

ثم من يدري فلعل عملية السؤال تكون امتحاناً من الله للمنفق ليراه الله

---

(١) سورة التوبة: الآية، ٧٩.

(٢) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٣) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٤) مجمع البيان: في تفسيره لهذه الآية.

ويكشف عما تجيش به نفسه من حبه للخير للجميع بغض النظر عن الفقير، أو من كانت نفسه غير طيبة، ويتحلى بضعف بحيث يرضى لنفسه أن ينزل إلى مثل هذا المستوى الضحل من الذل والانكسار، وقد جاء عن رسول الله (ﷺ) قوله: (ردوا السائل ببذل يسير وبلينٍ ورحمة فإنه يأتيكم حتى يقف على بابكم من ليس بإنس، ولا جان ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله) [١].

وفي حديث آخر عنه (ﷺ) أن السائل قد يصرح ويقول: (إنني رسول من الله لأبلوك فوجدتك شاكراً فجزاك خيراً) [٢].

مشكلة التسول:

سبق لنا أن بينا في مقدمة الكتاب أن موضوع بحثنا هو الفقير العاجز لا الفقير المتسول الذي يتخذ من التكفف وملاحقة الناس مكسباً له فإن إعطاء مثل هذا المحترف تشجيع على البطالة، والاحتيال على جيوب الناس ومضايقتهم في أغلب الأوقات ومثل هذا الشخص يبغضه الله. وسنتعرض فيما سيأتي إلى ذكر بعض الأحاديث التي صرحت بأن السائل لو لم يكن فقيراً، ومد يده يتكفف، فكأنما يتناول الخمر، أو أن جزاءَه النار، أو يأتي يوم القيامة مخموش الوجه.

وقد يرد السؤال عن التوفيق بين هذه الأخبار التي يظهر منها بغض الله سبحانه للسائل، وبين الأخبار المتقدمة التي تقول: إن رسول الله (ﷺ) ما منع سائلاً قط، أو ما جاء في مناجاة الله لموسى بن عمران من قوله تعالى: (يا موسى أكرم السائل ببذل يسير أو بردٍ جميل).

لأن الأخذ بظاهر هذه الأخبار إكرام السائل بإعطائه أو برده رداً جميلاً لو لم يكن المعطي يرغب في إعطائه، ومعنى ذلك تشجيع السائل على التسول لأنه يجد فيه مرتعاً خصباً، ومكسباً يدر عليه المال، فهو أينما يتوجه يجد من يكرمه ولا يرد له طلباً.

والجواب عن ذلك: إن الأخبار لم تأمرنا بإعطاء المال على كل حال، بل خيرت

---

(١) لاحظ لهذه الأخبار الحر العاملي: وسائل الشيعة.

(٢) لاحظ لهذه الأخبار، وسائل الشيعة.

المعطي بين الإعطاء والرد، وحينئذٍ، فإن عرف حال السائل، وأنه متسول رد رداً جميلاً، أما لو كان محتاجاً، وفقيراً، أكرم، وأعطى.

على أن هذه الأخبار، وإن أطلق فيها لفظ السائل الشامل لكليهما المتسول المحترف والمحتاج الحقيقي إلاّ أن الأخبار المصرحة: بأن النار جزاء المتسول تقيد إطلاق تلك الأخبار فتكون النتيجة: عدم رد السائل الواقعي، ورد السائل المحترف طبقاً لأخبار التقييد، وبذلك تنحل مشكلة التسول.

٤. التماس الدعاء من السائل:

بذلك صرحت بعض الأخبار تبين بأن دعوة السائل في حق المنفق تستجاب لذلك نرى الأئمة (عليهم السلام) يحثون المنفق أن يطلبوا ممن يسألهم حاجة أو شيئاً من المال أن يدعو لهم.

وبهذا الصدد نرى أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (إذا ناولتم السائل شيئاً فاسألوه أن يدعو لكم) [١].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) أن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (ما من رجل تصدق على مسكين مستضعف، فدعا له المسكين بشيء تلك الساعة إلاّ استجيب له) [٢].

ويقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) في حديث له: (دعوة السائل الفقير لا ترد)[٣].

وقد تكرر هذا الإرشاد منهم (صلوات الله عليهم) في حق المعطين، وأن يطلبوا من السائل الدعاء لأنهم يستجاب في حقهم حيث نبّه على هذا المعنى الإمام زين العابدين (عليه السلام) في حديث آخر له فقال: (إذا أعطيتموهم فلقنوهم الدعاء فإنه

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة: ٦/ ٢٩٤، وما بعد.

(٢) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٩٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٩٤.

يستجاب بهم فيكم ولا يستجاب لهم في أنفسهم) [١].

٥. عدم الرجوع في الصدقة:

ومن أدب العطاء أن لا يرد المعطي الصدقة إذا أخرجها ليعطيها إلى الفقير فليس من المستحسن أن يردها من غير فرقٍ في السبب بين أن يكون السائل قد رفضها، أو لم يجد سائلاً، أو ما شاكل ذلك من الأسباب.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (من تصدق بصدقة فردت عليه، فلا يجوز له أكلها ولا يجوز له إلاّ إنفاقها إنما منزلتها بمنزلة العتق لله، فلو أن رجلاً اعتق عبداً لله، فرد ذلك العبد لم يرجع في الأمر الذي جعله لله فكذلك لا يرجع في الصدقة) [٢].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سأل عن رجل يخرج بالصدقة ليعطيها السائل فيجده قد ذهب فقال: (فليعطها غيره، ولا يردها في ماله) [٣].

إن الأمر بعدم ارجاع الصدقة يجسد لنا الحرص الشديد على أن يبقى الثواب الذي حصل عليه المعطي مجرداً له فلا يفوت ما حصل عليه بإرجاع الصدقة، بل يبقيها لينال ثوابه.

---

(١) المصدر المتقدم: ٦/ ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة: ٦/ ٢٩٤ و٢٩٥ و٢٩٦.

(٣) المصدر السابق: ٦/ ٢٩٤ و٢٩٥ و٢٩٦.

صفات ممدوحة في الفقير:

١. أغنياء من التعفف:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [1].

مع الآية في مقاطعها.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

الحصر: هنا بمعنى المنع، ويقول المفسرون: أن الآية الكريمة تحدثت عن مجموعة من الفقراء كانوا في المدينة، وهم من أهل الصفة، وأهل الصفة فقراء يتواجدون حول المسجد النبوي، أو أمامه في رحبته خارج المسجد حبسوا أنفسهم عن العمل للمعاش.

وقد اختلفوا في سبب هذا الحبس.

فقيل: أنهم فعلوا ذلك لأنهم هيأوا أنفسهم للجهاد خوفاً من الكفار.

وقيل: إن بعضهم منعه المرض من الكسب، والتجارة.

وقيل: إنهم انصرفوا للعبادة.

وقيل: غير هذا، وذاك من الأسباب.

إلاّ أن الذي لا خلاف فيه هو أن هؤلاء لم يستطيعوا العمل، والكسب، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

هؤلاء الفقراء لشدة تحملهم، وظهورهم بالمظهر اللائق الذي يحفظ لهم

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٣.

كرامتهم، وعزتهم، وعدم مد يد الذل إلى الغير هو الذي جعلهم أغنياء في نظر الناس ممن يجهل حالهم، وإنما عرفوا مما بدى عليهم، وظهر من آثار الجوع، أو رداءه الملبس، وإلاّ فإنهم يحملون بين جوانبهم قلوباً ملؤها الإيمان بالله، ونفوساً أبية تأبى أن تلوي جيداً لغير الله سبحانه.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾:

أي وعلى فرض طلبهم وسؤالهم من الناس لو ألحت الحاجة بشكل إضطرهم إلى السؤال فإنهم يسألون بهدوء، وبرفق يتناسب مع ما هم عليه من التعفف، وما يتحلون به من رفعة، وإباء.

وليأخذ الفقراء من هذه الآية درساً قيماً يكيفون به أوضاعهم على نحو ما ترسمه من التحدث عنهم، وليثقوا بأن الله هو الرازق، وهو المقدر، وانه لا يضيع من يتكل عليه.

٢. دعاء السائل للمنفق وحمد لله:

صحيح أن المعطي يعطي لوجه الله، والتقرب إليه، ولكن لا ينافي ذلك أن يجد المنفق من السائل تجاوباً على عطيته، فيقابله بالشكر لله، والدعاء له، وبذلك يقوم برد بعض الجميل له، ولعل ذلك يكون تشجيعاً للمعطي فيكرر العطاء له، أو لغيره من المحتاجين.

نستفيد كل ذلك، من الحديث الذي يحدثنا به أحد الرواة قائلاً: (كنا عند أبي عبد الله (عليه السلام) بمنى، وبين أيدينا عنب نأكله، فجاء سائل فسأله فأمر له بعنقود فأعطيته فقال السائل: لا حاجة لي في هذا إن كان درهم، قال: يسع الله عليك، فذهب، ثم رجع فقال: ردوا العنقود فقال: يسع الله لك، ولم يعطه شيئاً، ثم جاء سائل آخر فأخذ أبو عبد الله (عليه السلام) ثلاث حبات عنب، فناولها إياه فأخذها السائل من يده ثم قال: الحمد لله رب العالمين الذي رزقني. فقال أبو عبد الله: مكانك فحثا ملأ كفيه عنباً، فناولها إياه، فأخذها السائل من يده ثم قال: الحمد لله رب العالمين،

فقال أبو عبد الله: مكانك يا غلام أي شيء معك من الدراهم؟ فإذا معه نحو من عشرين درهماً فيما حرزناه أو نحوها فناوله إياها، فأخذها ثم قال: الحمد لله. هذا منك وحدك لا شريك لك فقال أبو عبد الله (عليه السلام): مكانك، فخلع قميصاً كان عليه فقال: البس هذا، فلبسه، ثم قال: الحمد لله الذي كساني، وسترني يا أبا عبد الله. أو قال: جزاك الله خيراً لم يدع لأبي عبد الله (عليه السلام) إلا بذا ثم إنصرف...)[1].

لنقف مع هذه الرواية وندفع عنها ما يرد عليها من إشكال مفاده:

ما يقال: من أن الإمام كيف يرد السائل الأول لمجرد أنه لم يرغب في أخذ عنقود من العنب بل أراد درهماً، وما يدرينا، فلعل السائل كان محتاجاً إلى المال لا للعنب فما معنى رد الإمام له، ولا أقل أن نطلب من الإمام (عليه السلام) أن يسأل عن سبب رد السائل العنب، وطلبه الدرهم؟

والجواب عن هذا الاشكال: بأن الإمام الصادق (عليه السلام) ربما كان يقصد من هذا الرد للسائل أن يعطي درساً لمن حضر، ولمن يصله الخبر في أدب السؤال، وذلك بتنبيه السائل بأن أدب السؤال يقتضي عدم رد العنف لأن رده تحقير للمنفق على عطائه، بل كان أدب السؤال يقضي بقبول الهدية، ثم المطالبة بالمال وإظهار الحاجة له أما هذه المقابلة بالرد فإنها غير مستساغة.

وعلى العكس من السائل الأول نرى السائل الثاني بقبوله لحبات العنب الثلاثة وحمده لله على الرزق حفز الإمام على الزيادة بالعطاء، وكرر السائل الحمد فكرر الإمام العطية، وعاد السائل يحمد الله سبحانه فعاد الإمام بالمال، وحمد السائل مجدداً فخلع الإمام قميصه عليه فانصرف السائل وقد حصل على العنب، والدراهم، والقميص، وكان ذلك نتيجة حسن تصرف السائل في قبوله العطاء بينما حرم السائل الأول من كل ذلك نتيجة سوء تصرفه وأسلوبه المعوج في تقبله العطاء.

---

(١) المولى محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي/ ١، ١٨٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٣. أن لا يسأل إلاّ مع الحاجة:

السؤال والتكفف ليس حرفة، وليس هو ـ في نفس الوقت ـ هواية ليقصد الإنسان من وراء ذلك جمع المال، والعيش على حساب الآخرين... بل لابد من أن يكون السؤال نابعاً عن حاجة السائل، وعوزه، وفي غير هذه الصورة فإن الشارع المقدس يمقت هذا النوع من التكفف، ومد اليد إلى الآخرين وبالتالي يتوعد السائل لو تكفف من غير حاجة، ولا احتياج.

يقول الإمام أبو عبد الله (عليه السلام): (ما من عبد يسأل من غير حاجة، فيموت حتى يحوجه الله إليها، ويثبت الله له بها النار)[1].

وفي حديث آخر نراه يقول: (من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الخمر)[2].

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر من بحثنا لابد من الإجابة على السؤال عن هذا التشديد على السائل لو سأل من غير حاجة، فإن مثل هذا السائل، أقصى ما يقال في حقه: أنه نزل إلى المستوى الواطئ فرضي بالعيش ذليلاً يطلب من هذا، ويسأل من ذاك وهذا أمر يخصه، وعليه ينطبق عليه قول الشاعر:

(من لم يكرم نفسه لم يكرم).

فلو ارتضى الشخص لنفسه أن لا يكرم فهل يكون جزاؤه النار كما في الخبر الأول، أو انه كمن أكل الخمر؟ والمراد بالأكل هو شربها.

سؤال ينتظر الإجابة؟

والجواب عن ذلك: إن الإسلام لا يرضى للفرد أن يكون كلاً من الآخرين، بل يحبذ للإنسان الاعتماد على النفس، والجد في هذه الحياة ليأكل قوته من ثمرة جهوده التي يبذلها في الكسب، والتجارة، والعمل، وقد جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله) في موارد كثيرة

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٤، ١٩، ح٣، باب: من سأل من غير حاجة.

(٢) وسائل الشيعة: ٦، ٣٠٦، ح٦، باب: تحريم السؤال من غير احتياج، ط الإسلامية.

نهيه عن السؤال، وإرشاده السائل بترك التكفف، والدخول إلى معترك الحياة من الطريق الذي يحبذه الله لعباده وهو الطريق الذي سار عليه الانبياء، والأوصياء، والصالحون كما حدثنا التاريخ عنهم، وأنهم كانوا يعيشون من أعمالهم اليدوية، أو البدنية.

يقول الإمام أبو عبد الله الصادق: (لو أن رجلاً أخذ حبلاً فيأتي بحزمة حطبٍ على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل) [1].

وعنه أيضاً عن النبي (ﷺ) أنه قال: (الأيدي ثلاث: يد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد المعطى أسفل الأيدي فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم. إن الارزاق دونها حجب، فمن شاء قنى حياءه، وأخذ رزقه ومن شاء هتك الحجاب، وأخذ رزقه، والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبلاً، ثم يدخل عرض هذا الوادي، فيحتطب حتى لا يلتقى طرفاه، ثم يدخل السوق، فيبيعه بمدٍ من تمر فيأخذ ثلثه. ويتصدق بثلثيه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو حرموه) [2].

رزق حلال حصيلة جهد، وعمل، وربح، وتجارة مع الناس، ومع الله.

مع الناس: فيما حصله من ثمن ما احتطبه من ثلث المال.

ومع الله: فيما أنفقه من ثلثي الحطب، أو قيمته إلى الفقراء، وبذلك يسد حاجته، وحاجة غيره.

كل ذلك خير له من مد يد الذلة إلى الناس ينتظر ما تدر به عواطفهم نحوه.

على أن السائل بمد يده إنما يقصد إنساناً مثله فهو بهذه العملية يعرض عن التوجه إلى الله سبحانه ويبعد عن ساحته المقدسة ولو كانت ثقته بالله متينة ورصينة لما أعرض إلى غيره.

يقول لقمان الحكيم لولده: (يا بني ذقت الصبر، وأكلت لحا الشجر، فلم أجد

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦، ٣١٠، ح١٩، باب: تأكد كراهة المسألة مع الاحتياج...

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٤، ٢٠، ح٣، باب: كراهية المسألة.

شيئاً هو أمر من الفقر، فإن بُليت به يوماً، فلا تظهر الناس عليه، فسيهينونك، ولا ينفعوك بشيء إرجع إلى الذي ابتلاك به فهو أقدر على فرجك، واسأله فمن ذا الذي سأله فلم يعطه، أو وثق به فلم ينجه؟ [(١)]).

(فمن ذا الذي سأله فلم يعطه، أو وثق به فلم ينجه)؟

استفهام إنكاري يحمل بين طياته دروساً قيّمةً، فالسائل هذا الإنسان العبد المخلوق والمسؤول هو الله سبحانه.

الله: الذي كرر في آيات عديدة من كتابه الكريم ضمانه للاجابة لو دعاه العبد.

الله: الذي تطوف ملائكته في اناء الليل، وهم ينادون:

هل: من داعٍ فيستجاب له؟

هل: من طالب حاجة لتقضى له؟

هل: من تائب ليقبل الله توبته؟

لقد نام الملوك، وغلقوا أبواب قصورهم، وطاف عليها حراسها، وبابه مفتوح لمن قصده.

الله: الذي تكفل بأرزاق العباد فقال في كتابه الكريم:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾. بغض النظر عن مساوئ العباد.

الله: يخاطب عباده في حديث قدسي قائلاً: (عبدي أوجدت صدراً أوسع مني فشكوتني إليه).

هذا الله العظيم هل يرد سائلاً مد يده إليه؟

أو يوصد باب رحمته بوجه من طرق ذلك الباب؟

أو يمنع رزقه عمن اتكل عليه؟

إذاً لماذا يتجه السائل إلى إنسان مثله فقير إلى ربه؟

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦، ٣١١، ح٣، باب: كراهة إظهار الاحتياج والفقر.

الإحسان إلى الأرحام:

صلة الرحم، وقطيعة الرحم ككل تعرضت لهما الآيات الكريمة، والأخبار بصورة مكثفة، وكلها تحذر من القطيعة، وعدم التودد إلى الأرحام.

وقد بينت الأخبار، وكشفت عن العواقب الوخيمة التي تترتب على التفكك الذي يحصل بين الأقرباء مهما كان السبب في ذلك التقاطع، والتباعد، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ أهابت بأبناء الاسرة الواحدة أن يتقاربوا حول بعضهم وينشدوا، ويكونوا كالجسم الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ إلى قوله أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ (١).

وفي آية أخرى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (٢).

مقابلة دقيقة بين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وبين الذين يقطعون ما أمر الله أن يوصل، فلأولئك عقبى الدار، ولهؤلاء سوء الدار.

والدار في الموضعين هي: الدار الآخرة. وعقبى الدار هي الجنة، وسوء الدار هي، النار.

وما أمر الله به أن يوصل، وان كان في لسان الآية عاماً مشمولة للآيات والأخبار.

وهكذا الحال في قطيعة الرحم أيضاً فإنها كون مشمولة إلاّ أن صلة الرحم من جملة ما أمر الله به أن يوصل فتكون على نحو ما هو الحال في صلة الرحم، وبهذا

---

(١) سورة الرعد: الآية، ٢١ و ٢٢.

(٢) سورة الرعد: الآية، ٢٥.

الصدد تقول الآية الكريمة:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١).

وقد سأل أحد الرواة من الإمام (عليه السلام) عن قوله سبحانه:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ فأجاب (عليه السلام) بأنها أرحام الناس إن الله أمر بها أن توصل، وعظمها ألا ترى انه جعلها منه (٢).

والمراد من قوله (عليه السلام) جعلها منه أي قرنها باسمه في الأمر بالتقوى.

ويقول عز وجل في آية أخرى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ (٣).

ومن خلال هذه الآية تظهر لنا أهمية الإحسان بالوالدين، وبذي القربى حيث أوصى الله بهم، وقد قرن هذه الوصية بالأمر بعبادته، وعدم الشرك به. ومن الواضح ما للأمر بعبادته من الأهمية بالنسبة إليه، وهكذا عدم الشرك، وقد صرحت الآية الكريمة بذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ (٤).

وقد استفاضت الأخبار بالإشادة بصلة الأرحام والحث على التودد إليهم، يقول الإمام الرضا (عليه السلام): (يكون الرجل يصل رحمه، فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله ثلاثين سنة، ويفعل الله ما يشاء) (٥).

وعن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قوله: (صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي

---

(١) سور النساء: الآية، ١.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٥، ٢٤٣، ح١، باب: استحباب صلة الأرحام، ط الإسلامية.

(٣) سورة النساء: الآية، ٣٦.

(٤) سورة النساء: الآية، ٤٨.

(٥) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ح٢، ط الإسلامية.

الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب وتنسيء في الأجل)[1].

وفي خبر آخر: (صلة الرحم تحسن الخلق، وتسمح الكف، وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسيء في الأجل)[2].

وليس المراد بصلة الرحم هو الاقتصار على الأمور المالية ومد يد المساعدة إليهم بل القصد من وراء ذلك إظهار العطف والود وعدم الانقطاع عنهم.

وقد ضرب الإمام الصادق (عليه السلام) مثلاً لأدنى ما يمكن إظهاره للأرحام فقال: (صل رحمك ولو بشربة من ماء)[3].

وقد جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (أبغض الأعمال إلى الله الشرك بالله ثم قطيعة الرحم)[4].

وقد طفحت كتب الحديث بالأخبار التي تحدثت عن الخلفيات التي تترتب على قطيعة الرحم.

هذه لمحة عن صلة الرحم، وقطيعتها على نحو العموم.

أما في خصوص الإنفاق عليهم، ومساعدتهم بالمال ونحوه فقد جاء ذلك مصرحاً في الأخبار التالية:

فعن الإمام الصادق (عليه السلام): (الصدقة على مسكين صدقة، وهي على ذي رحمٍ صدقة، وصلة)[5].

وعن الإمام الحسين (عليه السلام) إنه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (ابدأ بمن تعول: أمك، وأباك، واختك، وأخاك، ثم أدناك، فأدناك وقال: لا صدقة،

---

(١) المصدر المتقدم: ح٣.

(٢) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ح٤.

(٣) لاحظ لهذه الأخبار الشيخ الكليني: أصول الكافي/ ٢، ١٥٠ ـ ١٥١، والمولى النراقي: جامع السعادات/ ٢، ٢٥٩.

(٤) لاحظ لهذه الأخبار المصادر المتقدمة..

(٥) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٩٦، ٣٧ و ١٤٧ و ١٥٩.

وذو رحمٍ محتاج)[١].

وسأل النبي (ﷺ) (عن أي الصدقة أفضل؟ فقال: على ذي الرحم الكاشح).

هذا إذا أخذ الإنفاق على الأرحام من الأخبار الشريفة، ومن إطارها الذي يعتبر الصورة الأخرى المعبرة عن الكتاب المجيد.

وأما الإنفاق من الناحية الاجتماعية، فنراه مطابقاً لما تقتضيه الأصول الاجتماعية... ذلك لأن الإعراض عنهم يكون موجباً لزرع بذور الفتنة والقطيعة بين أفراد الأسرة الواحدة بينما حرص الإسلام على لمّ شملها، وجمعها.

على أن الكثير من الناس يتقبل من الرحم، وتسمح نفسه أن يتقبل من الأقرباء هدية بينما لا يخضع لغيره، ولا تسمح نفسه للجوء إليه مها كلف الثمن.

ولهذا رأينا الأخبار تؤكد على البدأ بالعطاء، والإحسان إلى القرابة، وفي مقدمتهم أهل المحسن كما جاء عن الإمام الحسين (عليه السلام) في حديثه المتقدم.

آيات عامة في الإحسان:

لقد تعرض القرآن الكريم إلى ذكر الإحسان، والتشويق له وحثّ الناس على عمل الخير بشكل عام من دون بيان لخصوصية تلك الأعمال، ونوعيتها، وما يقدمه المحسن من النفع إلى الآخرين.. بل تركت الباب مفتوحاً أمام المحسنين ليشمل الإحسان كل ما ينفع المجتمع، وينهض بالأفراد، ولتعم الفائدة، وليتسابق الناس إلى تقديم كل شيء يكون إحساناً، وإلى كل فرد يحتاج لذلك الإحسان.

وعلى أن الآيات الكريمة في عرضها لصور التشويق إلى الإحسان قد تنوعت في العرض المذكور.

تقول الآية الأولى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣٧، ١٤٧، ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٣٤.

وجاء في الثانية:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وفي الثالثة قال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

من مجموع هذه الآيات الثلاثة نستفيد من النقاط التالية:

النقطة الأولى: إطباق الآيات الثلاث على الأخبار بأن الله يحب المحسنين، ويمنحهم عطفه ووده.

النقطة الثانية: الفرق بين الثوابين الدنيوي والأخروي، وأن أحدهما غير الآخر، وإلاّ فلو كانا شيئاً واحداً لما عطف ثواب الآخرة على ثواب الدنيا كما جاء ذلك في الآية الثانية حيث قال سبحانه:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾[3].

ولو أراد وحدة الثواب لأخبر بأن المحسن يجازى بالثواب من دون تفصيل، ويبقى الثواب على إطلاقه ليشمل كلا الثوابين: الدنيوي، والأخروي.

وقد يقال في بيان الفرق بين الثوابين: إن ثواب الدنيا ما يعود إلى الرزق، وعدم الابتلاء بالحاجة إلى الغير، وحسن السمعة بين الناس، ومنح المحسن العمر الطويل، وما شاكل من القضايا التي يكون النفع فيها واصلاً إلى المحسنين في هذه الحياة.

وأما ثواب الآخرة: فهو الجنة والنعيم الدائم.

النقطة الثالثة: الأمر بالإحسان مضافاً إلى محبة الله للمحسن وقد جاء ذلك في الآية الثالثة في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وكما جاء في آية أخرى قال فيها سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٤٨.

(٢) سورة البقرة: الآية، ١٩٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٤٨.

(٤) سورة النحل: الآية، ٩٠.

ولو لم نقل بأن الأمر في هذه الآية يدل على الوجوب الإلزامي بالعمل بالإحسان إلى الآخرين فلا أقل من القول بشدة محبوبيته له سبحانه.

النقطة الرابعة: إن الآية الثانية قد اشتملت على أمرين:

الأول: إن الله يمنح الثواب لمن أحسن في الدنيا قبل الآخرة.

الثاني: بيان أن الله يحب المحسن.

ومن هنا نقول، لسائل أن يطلب التوضيح عما يكتنف هذه الآية من غموض بالنسبة لمحبة الله للمحسن، وما تأثيرها بعد أن ضمن الله له الثوابين، وعلى الأخص بعد أن فسر ثواب الآخرة بالجنة، فمن وعد بالجنة ما يصنع بثواب الدنيا؟

والجواب عن ذلك: أن محبة الله لعبده نوع تكريم من الله لعبده، فهو بهذا الانعطاف إليه يحيطه بهذه الرعاية الخاصة، وهذا اللطف الإلهي، فيجعل المحسن محبوباً إليه.

إن المحسن له الحق أن يفتخر بهذا الشرف الرفيع، وإن كان قد منحه الله الجنة في الآخرة، وهذا هو ثوابه في الدنيا، ومحبة الله له.

ويتجلى هذا اللطف الكريم من خلال الآية التي رعت المحسن، فمنحته شرف رعاية الله له بمعيته فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1].

والإحسان في هذه الآيات، وإن كان عاماً يشمل الإنفاق وغيره، ولكن كما قلنا، أن الإنفاق أحد مصاديق الإحسان، ويكفي للمنفق أن يكون من جملة من يشمله إطلاق هذه الآيات الكريمة التي تشكل من حيث المجموع ترغيباً وتشويقاً للإنسان في الإنفاق باعتباره إحساناً إلى الغير.

---

(١) سورة النحل: الآية، ١٢٨.

أدب العطاء عن أهل البيت (عليهم السلام):

العطاء إلى المحتاجين على قسمين:

١: عطاء بمقدار من المال يرفع به المنفق حاجة الفقير الوقتية ويدفع عنه بعض المصاعب التي يواجهها في حياته اليومية نتيجة فقدانه المال.

٢: وعطاء يتميز بالمال الكثير يقدمه المعطي هدية للفقير ليستعين به على تبديل حالته وتغيير مجاري حياته المالية من الفقر إلى الغنى.

ونحن امام هذين العطائين:

فالأول منهما: لا يحل مشكلة الفقير، ولا يعالج قضية الفقر من الجذر إذ لا يريح المحتاج، ويخلصه من ويلات الحرمان.

أما الثاني: فإنه يحقق هذه الغاية وينحو نحو هذا الهدف السامي لأنه يتناول المشكلة، فيعالجها من الأساس باقتلاع جذورها العميقة، وبذلك تكون هدية المعطي من القسم الثاني ليس لإنعاش الفقير فقط بل خدمة يقدمها إلى مجتمعه بتبديل عناصر لها خطورتها بعناصر طيبة يرجى منها كل خير.

لذلك لا عجب إذا رأينا أهل البيت (عليهم السلام) ينحون في عطائهم على تحقيق هذه الغاية فنشاهد أغلب الوقائع التي كانوا يقدمون فيها العطاء إلى المحتاجين كان الإنفاق فيها من القسم الثاني فلم يكن عطاؤهم نزراً يقصدون به رفع حاجة الفقير الوقتية ولئلا يرجع السائل عن بابهم بخيبة أمل، بل كان عطاؤهم وفيراً يقصدون فيه تبديل حالة السائل وتغيير عنوانه من فقير عاطل إلى غني عامل.

تقول مصادر التاريخ أن الإمام الحسن بن علي (عليهما السلام) أعطى سائلاً قصده خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار، وأعطى طيلسانه للحمال الذي جاء ينقل هذا المال.

وفي واقعة أخرى نراه (عليه السلام) يعطي سائلاً قصده عشرين ألف درهماً وعندما شاهد السائل هذه الأريحية، وهذا الكرم قال والحيرة تأخذ عليه مسالك التفكير:

يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي، وأنشر مدحتي.

فأجابه الإمام، وهو يردد هذه الأبيات:

نحـن أنـاس نوالنـا خـضل ... يرتـع فيـه الرجـاء والأمـل

تجـود قبـل الـسؤال أنفـسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسل[1]

إن آل البيت الهاشمي عندما يعطون شعارهم في العطية (إذا أعطيت فأغني).

وهذا معنى العطاء الجزل الذي حصل أغنى من وصل إليه.

ولنقف أمام هاتين الواقعتين من عطاء الإمام (عليه السلام) فبالإمكان أن نستفيد من خلالها الأمور التالية:

الأمر الأول: أدب العطاء ويظهر ذلك من مبادرة الإمام بالعطاء قبل أن يبدأ السائل بالمسألة، وبذلك حفظ له كرامته فلم يمهله ليعرض عليه حاجته وتبدو على وجهه إمارات الذل، بل بادره بقضاء حاجته.

وقد حصل مثل ذلك لسائل آخر في مجلس الإمام الرضا (عليه السلام) فقد نقل لنا أحد الرواة أن سائلاً سأل الإمام أن يعطيه مقداراً من المال لأنه فقد نفقته فقال له: (قد افتقدت نفقتي وما معي ما أبلغ به مرحلة فإن رأيت أن تنهضني إلى بلدي).

ويأتي الجواب من الإمام قائلاً: اجلس رحمك الله، ثم دخل الحجرة، وخرج، وقد رد الباب وأخرج يده من أعلى الباب، وقال أين الخراساني؟ فقال: أنا ذا. فقال: خذ المائتي دينار، فاستعن بها في مؤنتك، واخرج فلا أراك ولا تراني ثم خرج.

وهنا تكلم أحد الحاضرين قائلاً: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: مخافة أن أرى ذلك السؤال في وجهه لقضائي حاجته.

أما سمعت حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) المتستر بالحسنة تعدل سبعين حجة والمذيع

---

(١) لاحظ لهاتين الواقعتين المجالس السنية: ٥، ٣٥٠.

بالسيئة مخذول، والمتستر بها مغفور له أما سمعت قول الأول:

متى آته يوماً أطالب حاجة ... رجعت إلى أهلي ووجهي بمائة [(١)]

الأمر الثاني: إغناء السائل. أن الإمام عندما يعطي هذا المقدار من المال وبهذه الكثرة لا يخلو الحال فيه:

فإما أن يكون من بيت مال المسلمين حيث يتصرف فيه بحسب ولايته الشرعية وهو أعرف بصرفه.

أو أنه من ماله الشخصي ويتصرف فيه تصرفاً شخصياً.

وفي كلتا الحالتين لا يتصرف جزافاً ولا يجوز لنا أن نقول: أنه بعمله هذا يبعثر المال.

ولعل الحكمة من ذلك هو إنعاش الفقير بإغنائه ليكون ما يقدمه له مساعدةً لتغيير حالته من الفقر إلى الغنى فيستعين بذلك المال على الكسب، والتجارة وشق طريقه في هذه الحياة على نحو أفضل مما هو عليه. فهو بعمله هذا ينقذ إنساناً شاءت الأقدار أن تسوقه إلى هذا المجرى من العيش الرديء.

٣ ـ شمولية العطاء:

ولم يقتصر عطاء الإمام على السائل، بل كان للحمال الذي جاء لنقل المال حصة من الإحسان حيث قدم له الإمام طيلسانه، ولابد أن نعرف أن طيلسان الإمام ليس شيئاً عادياً، وإلاّ فلو كان شيئاً عادياً لما قدمه لهذا المسكين، ولو كان حمالاً.

إن الإمام (عليه السلام) بهذه الهدية يريد إرضاء جميع الأطراف، وعدم خروج فقير من الفقراء من مجلسه كسير النفس، ولذلك أرضى حتى الواسطة في النقل فطابت نفس الحمال، وهو يضع الطيلسان على كتفيه.

هذا لون من العطاء.

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦، ٣١٩.

وهناك لو آخر نشاهد وقائعه تمر من مسيرة الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) الحياتية فإن عطاءه كان يشتمل على نحوين من الإحسان.

عطاء الإمام من القسم الأول:

تقول مصادر التاريخ أن الإمام زين العابدين (عليه السلام) كان يخرج في الليل، وهو يحمل الطعام، والكساء، والدراهم، والدنانير، وربما حمل الحطب على كتفه ليوزع كل ذلك على الفقراء، وهو متنكر لا يريد أن يعرفه الفقراء، ولكنهم عرفوه بعد وفاته لأنهم افتقدوه بعد انقطاعه عنهم.

وليس هذا النوع من العطاء بعيداً عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) فقد تلقاه عن مسيرة جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وشاركه بهذه المسيرة أولاده، وأحفاده من أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) وكانوا يقولون لمن يعترض عليهم هذه الطريقة لما فيها من الإنهاك، والتعب، ولربما بعض الشيء من النقص عندما تصدر من أحدهم، وهو على جانب كبير من المهابة والإجلال: (صدقة الليل تطفئ غضب الرب).

وكان كثير من الأئمة يسيرون على هذه الطريقة مع بعض ارحامهم وهم لا يعرفونه ولربما صدر من بعضهم الدعاء عليه لأنه لم يصله، والإمام يغضي عن ذلك ولا يلتفت إليه لئلا يعرفه.

كل ذلك للحفاظ على كرامة المحتاجين والتستر على الحالة التي هم عليها.

عطاء الإمام من القسم الثاني:

عتق العبيد

لظروف وأسباب قد لا تكون خافية على من درس أوضاع الجزيرة العربية آنذاك وبقية الممالك، والمدن التي كان سوق العبيد فيها رائجاً، والتجارة بهم رابحة فإن الإسلام لم يواجه الأمة وهو في أول المسيرة بالغاء الرقيق إذ لم يكن بالامكان منع ما جرى عليه العرف السائد في وقته.

وبما أن الإسلام حرص على غلق باب الرق، وكان هذا من الأسس الأولية لبناء المجتمع الإسلامي، لذلك عالج هذه المشكلة من طريقين:

الأول: غلق باب الرق ابتداءً إلاّ في حالة الحرب بين المسلمين والكفار جهاداً، أو دفاعاً وبشروط يتعرض لها الفقهاء في بحوثهم الفقهية.

الثاني: تصريف ما كان موجوداً من الرقيق بفتح الباب لعتقهم حيث جعل من جملة ما يكفر به عند ارتكاب بعض الخطايا (عتق الرقبة).

وهكذا فيمن ملك أحد العمودين جانب الأب، أو الأم، فإنه يعتق عليه قهراً.

ومثل ذلك موضوع الطوارئ القهرية التي تحل بالإنسان من الأمراض وغيرها، فإنه يعتق قهراً عند حلول ذلك الطارئ القهري كما لو قطعت يده، أو رجله، أو عمِيَ وما شاكل.

وبعد كل هذا أخذ الإسلام يشوق الناس إلى التقرب إلى الله بعتق العبيد، وجعل ثواباً عظيماً لمن يحرر نسمة، ويخلصها من قيود العبودية.. وبذلك فتح الروافد الكثيرة لتصريف ما كان موجوداً من العبيد لينهي مشكلة تأصلت بين الناس في ذلك الوقت[1].

---

(١) لقد تعرضنا لموضوع الرق ومعالجة الإسلام له وحل مشكلته بشكل موسع في كتابنا الحجر وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٤٥٤.

وعلى هذا سار المحسنون فكانوا يتسابقون على شراء العبيد، وعتقهم لوجه الله سبحانه وكان من جراء هذه الروافد تخفيف حدة العملية الرقية، وكساد سوق الرقيق إلى أن وصل الأمر إلى تقلصها، بل وأنها قد إنعدمت في أيامنا هذه.

ولكن الملاحظ من الواقع الذي يعيشه أهل البيت (عليهم السلام) تجاه هذه المشكلة أنهم لم يكتفوا بتصريف العبيد بشرائهم وعتقهم بل كانوا يقومون بأعمال أخرى تربوية واجتماعية مضافاً إلى عملية العتق والتحرير.

ولنبدأ مع الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) من المراحل الأولى التي يشتري فيها العبد ويهيؤه للعتق:

المرحلة الأولى: وتبدأ بتعليم العبد، وتثقيفه ثقافة إسلامية، وتأديبه بالآداب التي يريدها الإسلام.

المرحلة الثانية: وبعد ذلك يعتقه لوجه الله لا على نحو الجزاء عن كفارة ليكون الغرض من العمل هو التقرب الصرف لله سبحانه، ونيل مرضاته.

المرحلة الثالثة: تزويده بالمال ليساعده على الاستعانة به في الكسب والتجارة ليشق طريقه في هذه الحياة من جديد لا أن يكون كلاً على الناس كما كان كلاً على مولاه قبل عتقه.

وكان (عليه السلام) يتحين الفرص المناسبة لعتقهم، ويكون ذلك في موسم الأعياد من شهر رمضان، أو الأضحى ليضيف إلى فرحة العتق فرحة استقبال العيد بحرية كاملة.

أما معاملته معهم فكانت معاملة رقيقة تنسيهم ذل العبودية والرقية ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الإمام زين العابدين، لم يكن يعاقب عبده لو صدر منه ما يوجب العقوبة بل كان يسجل عليه خطأه، ويحصيه، وينتظر إلى أحد العيدين رمضان، أو الأضحى، وعندها يجمعهم، ويقرأ لهم ما ارتكبوه من الأخطاء كل ذلك يجريه معهم بلطف، وأدب لا بزجر، وخشونة، وبعد أن يأخذ منهم اعترافهم بما صدر منهم بعد تذكير كل منهم بوقت الخطأ، ومكانه.

وإذا ما تم كل ذلك أصدر حكمه عليهم بقوله:

قد عفوت عنكم.

ولم يكتفِ بذلك بل يقول لهم بعدها:

فهل تعفون عني ما كان مني إليكم؟

فيقولون: قد عفونا عنك وما أسأت.

وهل يكتفي بهذا المقدار من الاعتذار، والتنازل؟

ويأتي الجواب: لا، بل يوقفهم ويكلفهم بإصدار عفوهم عنه بمظهر الدعاء قائلاً لهم:

قولوا: اللهم اعفو عن علي بن الحسين كما عفا عنا [(١)].

وبعد أن يستجيبوا لما طلب منهم من العفو على هذا النحو من الدعاء يحررهم، ويعتقهم لوجهه تعالى، ويعطيهم بعض المال ليبدأوا بذلك مسيرتهم في حياتهم الجديدة.

ومن خلال هذه المسيرة مع الإمام (عليه السلام) في معاملة عبيده التي تتكرر كل عام مرة، أو مرتين نتعرف على مدى ما يتحلى به الإمام (عليه السلام) من لطف، وأدب ونفس رقيقة، وروح تربوية عالية، فهو لم يعاقب عبيده إذا أخطأوا، بل يطلب منهم العفو، وهو صاحب العفو، ولا يتركهم يشعرون بالتقصير أو التصاغر أمامه يطلب منهم العفو، وهو من مصدر القوة.

ويكلمهم بهدوء، وإتزان، وبلسان يقطر رقة قائلاً لهم:

فهل عفوتم عني ما كان مني إليكم؟

ولنرى ما كان منه إليهم؟ فمن كان يحمل مثل هذه النفسية الرفيعة ماذا يصدر منه طيلة المدة التي يكونون ضيوفاً عليه في طريق تسريحهم إلى عالم الحرية.

---

(١) المجالس السنية: ٥، ٤٠٣.

إن الذي يصدر منه ما هو إلاّ الحنو، والشفقة، واللطف، والرعاية بكل معانيها، وقد عودهم أن يجالسهم، ويأكل معهم، ويلبسهم أحسن اللباس، ولا يجور عليهم. كل ذلك ليعلمهم كيف يشقون طريقهم في حياتهم الجديدة بعد العتق.

معاملة طيبة ونتيجة حسنة.

فمن العبودية إلى الحرية.

ومن الجهل إلى العلم.

ومن الفقر إلى الغنى.

ولو فتشنا كتب التاريخ لرأينا هذه السيرة هي نفس السيرة التي جرى عليها بقية الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) مع العبيد بل مع الفقراء والمحتاجين لا بل ومع كل أحد من الناس بغض النظر عن العناوين التي تميز بعض الناس عن بعضهم الآخر.

سلام الله عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، والتنزيل.

وسلام الله عليكم يوم ولدتم، ويوم استشهدتم، ويوم تبعثون، وإن كنتم أحياء عند ربكم ترزقون.

عز الدين السيد علي بحر العلوم

الفهرســت

١ـ الإنفاق الإلزامي

٢ـ الإنفاق التبرعي

صفات ممدوحة في الفقير